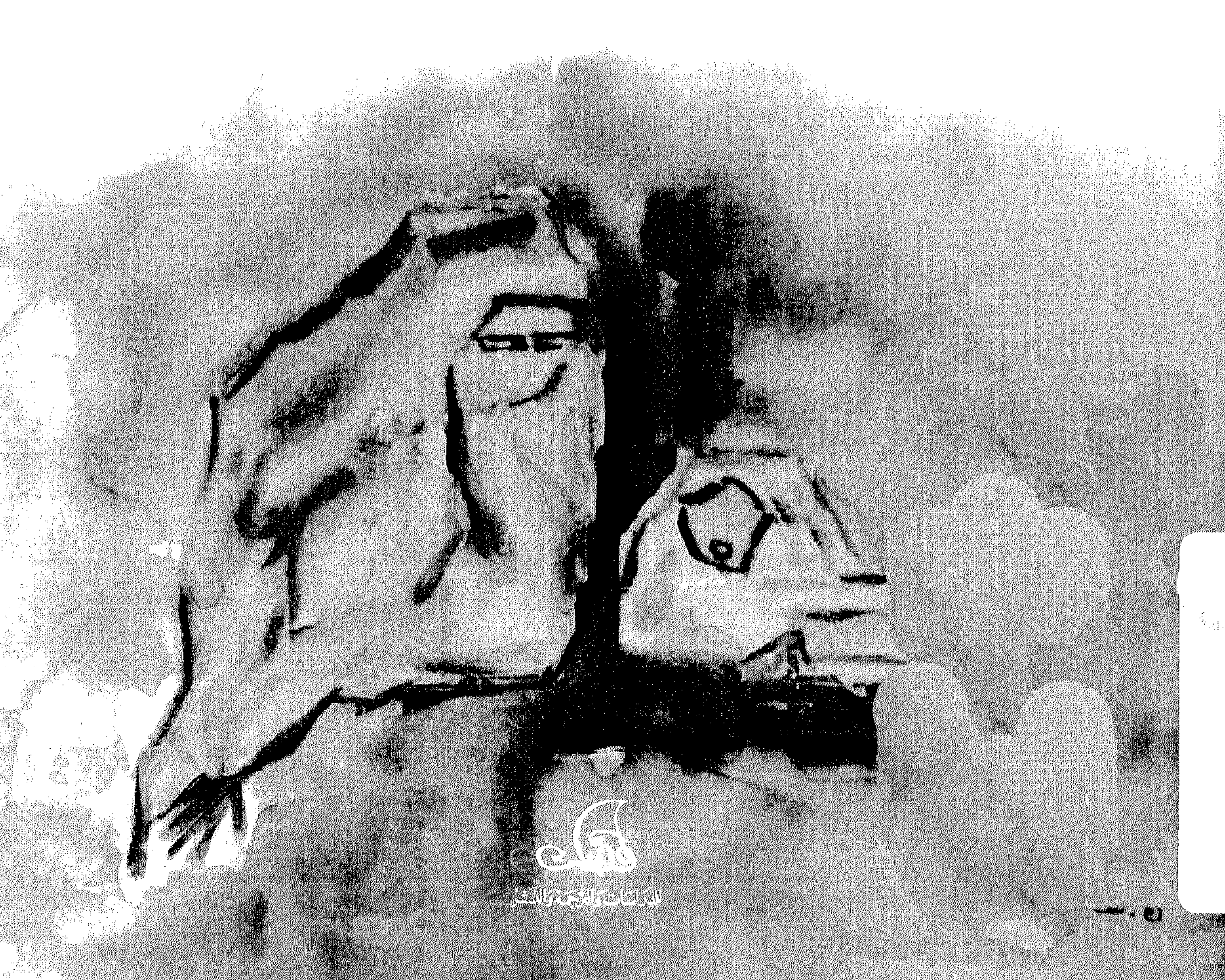
نادیا سلطان

قراءة في لوحة الحجاب



قراءة في لوحة الحجاب

قراءة في لوحة الحجاب

ناديا سلطان



الكتاب رقم: /٢٤/.
العنوان: قراءةٌ في لوحة الحجاب.
المؤلفة: ناديا سلطان.
الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

فُصِّلَتْ للدِّراسَات والتَّرْجمَة والنَّشْر

سورية. حلب. شارع القوتلي. هاتف: ٢٢٤٢١١٧. فاكس: ٢٢٢٦٥٢٨. ص.ب: ٨٢٦٠
e.mail: intertra@net.sy

طبع في لبنان

إهداء

إلى من أوصاني أن أترك في الدنيا

أجمل مما أخذت منها

إلى روح والدي

القاص المبدع والأديب الفذ

علي مظفر سلطان

اتقدَّم بالشُّكر الجَزيلِ إلى الأسْتَاذِ الأديبِ

فاضل السبّاعي

الذي كانَ له دورٌ مبرورٌ في رؤيةِ هذا الكتابِ للنُّور



هذه اللوحة

تقديم المفكر الإسلامي
د. محمود عكام

الحمدُ للهِ الآمرِ النَّاهي بما يُصلحنا، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسوله الدَّاعي إلى مايُسعدنا، وعلى آلهِ أُولِي مودَّتِنا، ورضيَ اللهُ عن الصَّحبِ سادتِنا، وبعد:

فبالأمس دَعتْني إلى رؤيةِ لوحاتٍ شكَّلَتْها بالألوان، وأسقطتْ عليها انطباعَ إنسان، واليومَ تدعوني إلى قراءةِ لوحةٍ رسَمَتْها بالكلمات، وأحاطتْها بالفهم والحكمة والإيمان.

في الرسم وَصَفتْ فأجادت، وفي الكتابة صاغتْ فأقنَعتْ.

عنوانُ لوحتنا هذه «الحجاب»، ولَكَم وددت، ومنذ زمن، أن تكتبَ في ذي القضيةِ امرأةٌ، فهي الأقدرُ على الحديث عنها، وتقديمِها، للنساء خاصة، حُكماً شرعياً في مصلحةِ المرأةِ، وليس على حسابِها، أوحسابِ شيءٍ مِنْ كرامتها ومكانتها وأنوثتها.

كاتبتُنا فنانةٌ، فنانةٌ تشكيلية، ومنَ الفنِ انطلقتْ فكتبتْ، ومِنْ أحاسيسها

ومشاعرها ومعاناتها نهلتْ فسطَّرتْ.

نادت ناديا: إنَّ لتقويم أيَّةِ لوحةٍ قواعد، فعلامَ إغفالُها ؟!

ولي قصةٌ مع الحجاب فاسمعوها، ولا تهملوها. فأنا من جُملةِ المعنيَّاتِ بها. والشاهدات عليها. ولرأيي اعتبارٌ مادمتُ مخاطَبةً فيها وبها.

بَدأتْ مع«التقوى»، وبها انتهتْ، فالمصطلحُ هذا مضمونٌ لابدَّ له مِنْ شكل، وشكلٍ لايتخلَّى عن مظهر، ومظهرٍ له لباسٌ؛ ومَنْ قرَّر الانتسابَ لهذا المصطلح فليرتدِ لباسَه، فلكلِّ شيءٍ لباسٌ، واللباسُ رمزٌ يعني الالتحاقَ، وقد يُعمِّق فيشيرُ إلى الولاء، وليسَ منَ التمجيد للهِ أنْ ننزِّهه عن ذكر لباس التقوى وتبيانه في كتابه، بل منَ التعظيم له والتمجيدِ لجنابه أنْ نؤكِّد توضيحَه له، لنعيشَ قولَه تعالى: **﴿مافرَّطنا في الكتابِ مِنْ شيء﴾** نظاماً ضابطاً مضبوطاً.

أعيدوا النظرَ في لوحة الحجاب، بناءً على قواعد متَّفقٍ عليها في عالم الحكم، وعندها: فإنَّا، أوإياكم، لعلى حقٍ، أوفي وَهْمٍ عميق.

لا تشوِّهوا اللوحة بشطبٍ أوتغيير، فالناظرُ العابر ليس كالفاعل الآمرِ الحاضر، ولاتزيدوا عليها ما ليس منها، فتجعلوه بعضاً منها، فالحرصُ في غير محلِّه.

ولاتتركوا اللوحةَ وحيدةً في معرض الانتماء، أوتجعلوها مع سيئاتٍ لايُناسِبْنَها؛ فالناسُ تريد كُلاً، وكلاً متناسقاً منسجماً: **﴿أفتؤمنونَ ببعض الكتابِ وتكفرونَ ببعض﴾**.

الدنيا معرضٌ ولوحاتُه كُثُر، وعليك، أيُّها الإنسان، التجوالُ في مدةٍ محدودةٍ غيرِ قابلةٍ للتمديدِ، والشراءُ، لتُكوِّن لديك معرضاً يناسبك، فاخترْ وابحثْ،

فالعقلُ أداتُك، والقلبُ محلُّ قرارك، والنظرُ دليلُك، والنهايةُ جِدٌّ مُسرعة: ﴿فستَذكرونَ ما أقول لكم﴾.

بُوركتْ صاحبةُ لوحةِ الحجاب هذه، صدَّقتْ كلمةَ الله ﴿والعاقبةُ للمتقين﴾، فانطلقتْ من التقوى، وسلَّمتْ بإيمانٍ بالآخرة، وبحثتْ عن الفائزين، فرأتْ في كتاب ربِّها: ﴿إنَّ للمتقين مفازاً﴾، فصمَّمتْ أنْ تبقى مع التقوى.

وتابعتْ فقرأتْ: ﴿إنَّ المتَّقين في جنات ونَهَر في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدرٍ﴾، فقالت: اللهمَّ لوحة بلوحة.

وأنا أقولُ، وأنقل قولَه تعالى: ﴿وقال ربُّكم ادعوني أستجِبْ لكم﴾.

والسَّلامُ عليكم.

د. محمود عكام

مقدمة

«بالنسبة إليَّ، بصفتي إنسانةً تؤمن بالتوحيد، وتنتهجُ سُنّةَ النبيِّ محمد ﷺ رجوتُ أن يكون تقرُّبي إلى الله غير مرهونٍ بساعات دوام محدَّدةٍ، متى انتهتْ أوقاتُها الخمسةُ خَلَعتُ الزِّيَّ الرسميَّ، الخاصَّ بالمرأة، وعدتُ إلى سابق عهدي!».

أعترفُ بأنِّي أُقحمتُ في هذا الموضوع إقحاماً!

لم أكن أسعى يوماً إلى أن أكتب في قضيةٍ كهذه، ولم يكن في نيَّتي أن أسلخَ ساعات وساعات كي أدافع عن مثل هذه القضية.

كنت أعتقد أنَّ من حقِّ كلِّ إنسانٍ أن يعيش ضمن ساحةٍ ضئيلةِ الامتداد، يمارس فيها بعضَ الحريات التي لايتجاوز فيها حريات الآخرين: في طعامه، شرابه، يقظته، منامه، لباسه...

مثلاً: لم أكن أتخيَّل أن يُعاقَب إنسانٌ ما لأنه أكل ذات يومٍ ثريداً!

أولأنَّه انتعل خُفَّاً أبيض، أوارتدى سروالاً أزرق!

أولأنه احتسى شاياً، وليس زنجبيلاً!

ولأحكِ لكم هذه القصة:

قرب داري في مدينة حلب الشهباء، حديقةٌ جميلة غنَّاء، باسقةُ الأشجار، صدَّاحة الأطيار، تُدعى «حديقة السبيل».

كنت أسعى إليها كلَّ يوم، فأمشي في ربوعها ساعةً من الزمن، ناشدةً الاعتدال في الصحَّة والقوام، مرتديةً بدلةً قطنيةً، ومنتعلةً خفاً مريحاً.

كنت ألتقي،أحياناً، ببعض النسوة، فنتجاذب أطرافاً من أحاديثَ شتّى، فتركض بنا دقائقُ الساعة أسرعَ ممَّا تمضي خطواتنا.

ذات يوم، من أيام الربيع المتوهِّجة حُسناً وألقاً، سعيتُ إلى حديقتي هذه، وأنا أضع على رأسي غطاءً، وعلى بدلتي الرياضية معطفاً. التقيتُ بصديقتين لي... فإذا بإحداهما تُطلق صيحاتٍ استنكاريةً، وترشقني بعبارات تنعى فيها عليَّ، بأسفٍ وحزنٍ بالغين، ثقافتي الفكرية، وإبداعاتي الفنية !

وأما الأخرى، فقد آثرت الإعراضَ عني بصمتٍ رزين، مغيِّرةً مسارَها، كيلا تضطرَّ مرغمة إلى مرافقتي كعهدها سابقاً.

باغتتْني ردودُ الأفعال هذه، وخاصةً أني كنت أرى أنَّه من غير المستحسن أنْ يُملي أحدُهم على الآخر ما يلبس، أو متى ينام ! فقد زارتني إحدى هؤلاء النسوة، المُعْرِضاتِ عني، في إحدى معارضي الفنية، وهي ترتدي معطفاً أحمر تتأرجح تحته أذيال فستانها البرتقاليِّ، ونظرتُ إليها آنذاك مشفقةً بعينَي الفنَّانة العاشقة للتناسُق والجمال، وكتمتُ استيائي، كما تقتضي اللباقة الاجتماعية، فلم أدَعْ أماراتِ الامتعاض تطفو على وجهي، وأنا أُخالس النظر إلى ملابسها المجافية لقواعد الأناقة !

ومرت أيام وشهور...

وسافرتُ إلى كندا وأمريكا غير مرَّةٍ، فجابهتني كثيرٌ من هذه الآراء التي تقتحم ساحة حرِّيتي الشخصية، وقرأتُ بعضاً من الكتب، وكثيراً من الصحف، وتضافرت كل الأقوال: المسموعة والمكتوبة، لتصبَّ في بحيرة النقد، نقدي، وأحياناً الانتقاد اللاذع!

كيف أَجبتُ؟

قد تتساءلون كيف أَجبتُ، وأنا أتعرَّض لهذه الانتقادات؟

كان الدفاع يُربكني، كما يرتبك أحدهم لو سُئل:

ترى لِمَ تُطِلُّ علينا شمس الصباح من المشرق دون المغرب؟!

أو: لِمَ يطير الغراب، ولا يعوم كما يفعل البط؟!

أو: لِمَ لايكون البحر حلواً كماء الجدول؟

أو: لِمَ لايكون النرجس أحمرَ والبنفسج أصفر؟!

أحسبُ أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج بعض الوقت، إلى أن يتأتى لأحدنا أن يوقظ قدرة الإقناع الراقدة في ظلال مسلَّمات الأمور.

مثلاً، أعتقد أنه من البديهي عند كلِّ الخلق أن القرب من الله له أماكنُهُ، وطقوسه، ولباسه، وأوقاته؛ فيشعل أحدهم شمعة، ويسعى آخرُ إلى صومعة، ويوقد أناسٌ البَخُور، ويقدِّم آخرون القرابين والنذور.

أما عند الأمَّة المسلمة، المتّبعةِ رسالةَ النبي العربي محمد ﷺ، فالتقرُّب إلى الله عمليةٌ لا تقبل التوقف عند الإنسان المسلم:

الزمان على امتداد حياته، سجلٌّ يُحاسَب عليه.

وأعماله الدنيوية كلُّها عبادةٌ، لأنَّها مقترنةٌ بذكر الله، مُتوَّجةٌ بطاعته، منضبطةٌ بتعاليمه، يُراعي فيها توازناً دقيقاً بين التكاليف والطاقة، بين الواقع والغيبيَّات، بين العمل والجزاء... بينه وبين باقي الخلق من المسلمين وسواهم، فلكلٍّ قداستُه، وحريته، واحترامه.

صندوقُ مدَّخراته قبرُهُ، إذا آبَ إليه وجدها فيه كاملةً دون زيادةٍ ولا نقصان.

أمّا طقوسُ عبادتِه:

فله ديارٌ مقدَّسة تُشدُّ إليها الرِّحال، فينضُو الرجال لباسهم، ويرتدون مايشبه الأكفان، ويَسعَوْن شُعْثاً مغبَّرين، حكَّاماً ومحكومين، فقراءَ وأغنياء، عظماء ومساكين. وتُسدِلُ النساء أرديتهن، فيبدو الوجه خاشعاً، وترتفع الأكفُّ المجرَّدة بالدعاء.

أمَّا مكان عبادته:

فقد جُعلت له الأرضُ على رحابتها مسجداً وطَهُوراً، فتمَسُّ الجباهُ كلُّها الثرى خمس مراتٍ في اليوم، معلنةً الخضوعَ والانقياد، متّجهةً إلى مركزٍ واحد، في زِيٍّ واحد، للمرأة، طالبةً التقرُّبَ من إلهٍ واحد.

بالنسبة إليَّ بصفتي إنسانةً تؤمن بالتوحيد، وتنتهج سُنَّةَ النبي محمد ﷺ رجوتُ أن يكون تقرُّبي إلى الله غير مرهونٍ بساعاتٍ دوامٍ محدَّدة، متى انتهت أوقاتُها الخمسة، خَلعتُ الزِّيَّ الرسميَّ، الخاصَّ بالمرأة، وعدتُ إلى سابق عهدي !

لمْ أشأ أنْ يكونَ لي زِيَّان:

أحدُهما للتّقرُّب إلى الله، والآخر للتّقرُّب من الناس. أردتُ أن أكون بمظهري أينما كنتُ، دائمةَ القُرب.

وعرفتُ أنَّ ما شرحتُ آنفاً، ودعوتُه بالبديهيِّ، ليس كذلك بالنسبة إلى كثيرٍ من النَّاس، لسببٍ أولآخر، وعزمتُ أن أخرج من دائرة البديهيات، ناشدةً استراتيجيةً أخرى، اتّخذتُ لنفسي فيها موقف الدفاع وليس الهجوم.

وابتدأتُ رحلةً جديدة من القراءة، والبحث، والتَّأمل، والابتهال، ثمَّ الإعلان والنداء..

فالغايةُ هي القُرب، والمبتغَى هو القريب جلَّ وعلا.

نادیا مُظفَّر سلطان

حلب الشهباء

٨/ذي القعدة/١٤١٨ ، ٦/آذار/١٩٩٨

تمهيد

الإنسانُ له مركزُ الصَّدارة.

هذا ما تعلنه الشَّريعةُ الإسلامية.

وضمن هذا التصوُّر، فإنَّ الإنسان أغلى مِن كلِّ قيمةٍ ماديَّة. إنه سيِّد هذه الأرض، وخُلِق ليكونَ الخليفة في الأرض.

﴿ وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ، ونحنُ نُسبِّحُ بحمدِكَ ونُقدِّسُ لكَ قال إني أعلم ما لاتعلمون * وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثُمَّ عرَضَهُمْ على الملائكةِ فقالَ أنْبئوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كنتم صادقين * قالوا سُبْحانَكَ لا علمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ * قالَ يا آدمُ أنْبِئْهُمْ بأسمائِهِمْ فلما أنْبأَهُمْ بأسمائِهِمْ قال ألمْ أقُلْ لَكُمْ إني أعْلَمُ غيْبَ السَّموات والأرضِ وأعْلَمُ ماتُبْدون وما كنتُمْ تَكْتُمون * وإذْ قُلْنا للملائكةِ اسْجُدوا لآدم فسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبى واستَكْبَرَ وكانَ من الكافرين ﴾ البقرة/ ٣٠-٣٤.

هذا هو الإعلان العُلويُّ الذي يقرِّرُ أنَّ الإنسان هو أعزُّ المخلوقات وأكرمها، ويتجلَّى هذا في أمر الملائكة بالسجود له، وفي طرد إبليس، ثم في رعاية الله له أولاً وأخيراً.

من هذا الاعتبار تنبثق جملةُ اعتباراتٍ ذاتُ قيمةٍ في عالم الواقع، وفي عالم التصوُّر على السواء.

في مجال التصوُّر، ترسم الشريعة الإسلامية للإنسان، هذا الكائن المستخلف في الأرض، صوراً كثيرةً متلاحمة متكاملة. صوراً واضحةَ الملامح، جليَّةَ القَسَمات، محدَّدةَ الصفات. فبرزت شخصية الإنسان المسلم ذاتَ أبعادٍ جليَّةٍ، وظلالٍ عميقة، لا لبس فيها ولا نقص ولا غموض.

ضمن سلسلة هذه اللوحات، مجموعةٌ من الصُّور رَسَمَتْ المرأةَ في الإسلام، ومن هذه المجموعة الأخيرة، اخترتُ لوحةً ثار حولها كثيرٌ من الجدل، واحتدمت الآراء، وتباينت وجهات النظر، وعلت بعض الأصوات، وخفتت أخرى، ثم غابت في غياهب الزحام: «**لوحة الحجاب**».

في الواقع، في وقت ما من الماضي، لم أكن أدرك أنَّ لهذه اللوحة قيمةً كبرى. فاللباس خارجَ أسوار دور الأزياء العالمية، لم يكن باعثاً على الجدل، واللباس ضمن مقاييس ألمع مصممي الأزياء، عرضٌ وطلب، ليس إلاّ.

وخارج هذه البيوت هو حريةٌ شخصية بحتة، حتى في أكثر العهود اضطهاداً لحرية الإنسان، وامتهاناً لكرامته.

لكن أمام لوحةٍ اسمها «**الحجاب**» علت الأصواتُ الناقدة معترضةً، ثم مستنكرةً فَمُهاجمة...

وأمام هذه اللوحة لنا وقفة، وقفة نقد.

الفصل الأول

شروطُ النَّقدِ الفَنِّيِّ

* زاوية رؤية صحيحة.
* سلامة النظر.
* التمتع بثقافة كافية.
* سلامة النيّة.
* الإنارة الكافية.

ما أمرَ بأمرٍ قالَ العقلُ ليتَه نهَى عنه !

النقدُ الفنيُّ مسألةٌ تخضع للموضوعية، والموضوعية بدورها قضيةٌ تخضع لمقوِّمات العقل، وللمناقشة المنطقية التي لا يحكمها الهوى، ولا تنقاد لعاطفة.

والشريعةُ الإسلامية شريعةٌ تحترم العقل، فالعقلُ هو طريق المعرفة، والمعرفة كانت السبيل لتكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات، بما فيها الملائكة المنزهون عن الخطأ !

أيُّ تكريمٍ للعقل ! وأيُّ تقديسٍ للعلم ! وأيُّ إجلالٍ للمعرفة ! ضمن التصوُّر الإسلامي ؟!

في القرآن الكريم تكرَّرت مخاطبةُ العقل بصيغ عدَّة:

﴿ **أَفَلا تَعْقِلُون** ﴾ ثلاث عشْرة مرة.

﴿ **لعلَّكم تَعْقِلون** ﴾ ثماني مرات.

﴿ **إنْ كنتم تَعْقِلون** ﴾ مرتين.

﴿ **أفلمْ تكونوا تَعْقِلون** ﴾ مرةً واحدة.

كما خاطبَ الناس بصيغة ﴿ **أولي الألباب** ﴾ ستَّ عشْرة مرةً.

وبـ ﴿ **أُولي النُّهى** ﴾ مرَّتين.

وفي هذا دليلٌ كافٍ على فضل العقل وأصحاب العقول.

تروي كتب السيرة أنّ أعرابياً، عاقلاً بالفطرة، دخل على النبي ﷺ يسأله

عن الإسلام، فبيَّن له الرسولُ ﷺ أوامرَ الإسلام ونواهيه، ولما خرج من عنده أعلن إسلامه. فقال له قومه: بمَ عرفت أنه رسول الله؟ فقال الأعرابي: «ما أمر محمدٌ ﷺ بأمرٍ قال العقلُ: ليته نهى عنه؛ ولانهى عن شيء قال العقل: ليته أمر به».

لذا فإنَّ التصوُّر الإسلامي يتَّفق مع قواعد النقد السليمة، بغية الوصول إلى رأيٍ سليم للوحة «**الحجاب**» ضمن ساحة النقد الفني.

والنقد، الذي يُرجى من ورائه الوصول إلى قرارٍ صائب، وحُكم سديد يتَّبعه أولو الألباب من الناس، له شروطٌ عدَّة، يجب توافرها في أيَّة لوحةٍ فنيةٍ لدى تقييمها، وهذه الشروط هي:

١) **زاويةُ رؤيةٍ صحيحة**: اختيارُ استراتيجيةٍ سليمةٍ لتأمُّل اللوحة.

٢) **سلامةُ النظر**: أن تكون للناقد عينان سليمتان من أيَّة آفةٍ.

٣) **التَّمتُّع بثقافةٍ كافية.**

٤) **سلامة النيَّة**: وتتجلَّى في أن يكون للناقد موقفٌ محايد، وألاَّ يكون له موقفٌ معادٍ سبقَ الكشفُ عنه.

٥) **إنارةٌ كافية**: تُمكِّن الناظرَ إلى اللوحة مِن رؤيتها بوضوحٍ من جميع الجهات.

زاويةُ رؤيةٍ صحيحةٍ

ليست الزاويةُ التي يقف فيها الناقد المتأمِّلُ للوحةٍ ما، إلاَّ موقعاً محدَّداً يؤثِّر في رأي الناقد إلى حدٍّ كبير. وهذه الزاويةُ شديدةُ التحكُّم في تكوين التصوُّر والانطباع المأخوذَين عن اللوحة. والحكمِ عليها بعدئذ.

فالوقوفُ في الزاوية الحادَّة لأقصى اليسار مثلاً، يؤدي إلى رؤيةٍ خاطئة، هي ذاتها التي يتمخَّض عنها الوقوفُ في الزاوية الحادَّة لأقصى اليمين، ولايمكننا في الحالتين أن نحصل على الرؤية الصحيحة المطلوبة.

وهكذا عندما ينمو الإنسان في بيئةٍ تتَّسم بتصوُّرٍ ساذج وممارساتٍ هامشية لأيٍّ منهجٍ أوعقيدة، فإنَّه سيدرك، حتماً، مع مرور الوقت، فداحةَ السذاجة والهامشية التي ترعرع في ظلالها، ممَّا يدفعه إلى محاولة الانتقال، وبعنف، إلى الجهة المعاكسة تماماً، كردٍّ فعلٍ مفاجىء يصدر عنه.

وإنَّ المغالاة في التمركز في أحد الطرفين يخلق زيادةً أونقصاناً في التصوُّر يُفضي إلى نتيجةٍ سلبية تتمثَّل في صدور حكم تنقصه الموضوعية التي ننشدها.

هل يخفض الحجاب، حقاً، من قيمة أحد مفاتيح الحضارة الإسلامية الأساسية ؟

لننظر في رأي الباحثة المغربية «فاطمة المرنيسي»، وهي تقف أمام لوحة الحجاب... تقول:

(من الواضح أن مفهوم الحجاب هو أحد تلك المفاهيم الأساسية لمفاتيح الحضارة الإسلامية، كمفهوم الخطيئة في الحضارة المسيحية، أومفهوم الاعتماد (credit) في الحضارة الأمريكية الرأسمالية، وإنَّ تخفيض تمثيل هذا المفهوم بقطعةٍ من القماش فرضها الرجال على النساء كي تحتجب عندما تمشي في الشارع، هو بالفعل إفقارٌ لهذه العبارة إن لم نقل: إنَّه تفريغ لها من معناها)[1].

لقد نشأت هذه الباحثة في بيئةٍ لم تُلقَّن فيها المعلومات الأولية عن الشريعة الإسلامية بشكل سليم، بل بأسلوبٍ ساذج ومبهم، وقد أدركت الكاتبة ذلك في سِنِي النضج والاكتمال. وتأكَّدت، بعد اطِّلاعها على الحضارة الغربية، من ضحالة المعلومات التي ارتشفتها في سِنِي اليفاع.

وتتابع الباحثة المغربية قولها:

(على امتداد طفولتي حافظتُ على علاقة غامضة جداً مع القرآن، الذي كنا تعلمناه في مدرسةٍ قرآنية ذات آداب صارمة، بصورة خاصَّة.

وفي حساسيتي الطفولية كان يبدو لي أنَّ الإسلام وحده هو الإسلام المُفْعَم بالخيال لجدَّتي الأُميَّة «لالا ياسمينا» الذي يسمح لي بالوصول إلى ديانةٍ شعرية.

أما في المدرسة القرآنية. فأصغر غلطة في اللفظ كانت تُصلَح ويعْقبها

---

(١) فاطمة المرنيسي: «الحريم السياسي» ص/١٢١. ط/٢، دار الحصاد. دمشق/١٩٩٣.

العقاب: «يجب قراءة القرآن كما نزل من السماء».

الثلاثاء كان يوم التلاوة: كلُّ غلطة في اللفظ، حسب طبيعتها، وحسب ثقلها، كانت تتناسب مع عدد من الضربات المدارة من قبل «المحضرية» الأكبر بين الطلاب، ونادراً الأكثر نباهة، إلا أنه كان يمكن شراؤهم بالكرز والأجاص والرمان حسب المواسم) [٢].

وهكذا، وبردَّة فعل مناهضة لاستراتيجية العَشَرية الأولى التي وقفت فيها الكاتبة، فإنَّها ستغيِّرُ موقفها بشكلٍ عنيف ومعاكس ومعاد. مما جعل نظرتها الناقدة، لبعض الصور التابعة للتصوُّر الإسلامي، مبنيَّةً على أساسٍ متطرِّفٍ ولاعقلاني.

تقول الكاتبة:

(ولكنَّ الحجاب سقط على المدينة، وبتر ذكرى انطلاقة الحرية هذه، وبعد خمسةَ عشَر قرناً فإنَّ العنف الاستعماري هو الذي سيُجبر، وبشكل متناقض، الدول الإسلامية لإعادة فتح سجلِّ حقوق الفرد والمرأة. فكلُّ نقاشٍ حول الديمقراطية يمرُّ بها، بهذه القطعة الصغيرة المضحكة من النسيج، التي غالباً ماتكون من الموسلين الناعم التي يُطالِب بها التماميُّون في أيامنا كما لو أنها جوهر الهوية الإسلامية) [٣].

---

(٢) فاطمة المرنيسي: المصدر نفسه. ص/٨٤.

(٣) فاطمة المرنيسي: المصدر نفسه. ص/٢٤٠.

إنَّ عنصر الكوميديا، الذي وفَّرته قطعة القماش هذه، كانت نتيجة للزاوية الحادَّة التي انتقلت إليها الكاتبة، فكان طبيعيّاً أن تتشوَّه عندها الرؤية، وتصبحَ مضحكةً بشكلٍ ما. وهي لن تقهقه إذا صادف مرورها بزيٍّ هنديٍّ، أويابانيٍ، أوإفريقيٍّ. والسببُ أنها تتأمَّل كلَّ لوحة من هذه الأزياء، وهي في المكان الوسط المعتدل بالنسبة لحضارتهم، أوالثقافة المنقولة إليها عنهم.

والحقُّ أنني لم أذكر أنَّ أحداً سخر من هذه الأزياء على مرِّ العصور، أوهزىء مثلاً من العُرّي الإفريقي لبعض القبائل البدائية التي تقطن الغابات.

... وهل من حربٍ نفسيةٍ تعرَّضت لها المتحجّبة ؟!

وهذا مثالٌ آخر لناقدٍ يدلي برأيه في لوحة الحجاب... يقول الكاتب الليبي «الصادق النيهوم»:

(عندما تحتجبُ المرأةُ المسلمة آملةً أنْ تفوزَ برضاء الوعَّاظ، فإنَّها في الواقع لا تلبس عباءةً فقط، بل تتقمَّص شخصيةً مستحيلة، أولُ مفاجأةٍ فيها أنها شخصيةٌ لم يخلقها الله.

فالمرأة المحجَّبة لاتخفي نفسها كالطفل داخل عباءة لأنها امرأةٌ ورعة، بل لأنها امرأةٌ مسحورة تعرَّضت لحرب نفسية رهيبة، شنَّها السَحَرة ضدها طوال ثلاثة آلاف سنة، ضمن خطة تربوية مكتوبة بلسان أكبر ساحرٍ في العالم.

وقد نجم عن هذا الضغط الهائل شلُّ عقل المرأة، وتدنيسُ جسدها، وأتاح إدانتَها شرعاً بأنَّها «ناقصة عقل ودين»، وأحالها إلى مخلوقٍ مريض في

حاجة ماسَّة إلى رحمة الله. إنَّ الحجاب فكرةٌ فظيعة إلى هذا الحد) [٤].

من الواضح تماماً أنَّ الزاوية التي وقف فيها الناقد ضيقةٌ جداًّ، قد تكون أضيقَ من سابقتها؛ ومرجع ذلك إلى الزاوية الأولى التي نشأ فيها، والحيِّزِ المكاني الذي احتوى طفولتَه، وكوَّن تصوُّرَه الأول.

إنَّ البيئة الصحراوية، مهدَ الكاتب الأول، كانت البيئة التي توارت فيها المرأة داخل عباءة فضفاضة، فاضمحلَّت شكلاً وشخصيةً، وضاعت كحبة رملٍ من رمال هذه الصحراء المترامية الأطراف.

وطبعاً فإنَّ الكاتب عندما يحاول الانتقال إلى الزاوية المعاكسة، كردَّة فعل معادية، فإنَّه سينتقل إلى زاويةٍ أكثرَ ضيقاً، وحادَّةٍ، ومتشنِّجة، تفوق موقف الباحثة المغربية. ولذا فقد جاءت النتيجةُ تحمل المبالغة، والحُكم الخاطىء القائم على أساسٍ هشٍّ وضعيف.

إنَّ إعلان الكاتب رأيَه المفرطَ في الاشمئزاز، في كون الحجاب مشكلةً سقطتْ فيها المرأة فدنَّست جسدها، وشلَّت تفكيرها، فأصبحت إنساناً مريضاً يستحقُّ الرِّثاء والشفقة. هذا الإعلان يدفعني إلى تساؤلٍ كبير:

ترى إذا استبدلت المرأة المتحجِّبة بعباءتها زِيَّاً حديثاً، هل يبطل مفعول السحر فجأةً ؟ وتتحوَّل إلى امرأةٍ حكيمة ناضجة مفكِّرة، فيَطْهُر جسدُها، ويتحرر عقلُها، وتَثْبُت براءتها من نقص العقل والدين !؟

---

(٤) الصادق النيهوم: «الإسلام في الأسر» ص/١١١-١٧٧. ط/٣، دار رياض الريس. دمشق/١٩٩٥.

ترى هل تكبر هذه الطفلة الساذجة بمعجزة ؟ فتتمزَّقُ عباءتُها القديمة، لتبرز لنا مثل هالْكْ (*Green Hulk*)، امرأةٌ متعلّمة مثقّفة ؟

وهل الكثيرات من النساء اللواتي يظهرن بمظهر حضاريٍّ أنيق، يَفُقْنَ فيه عارضات الأزياء، انعتقن بهذه الرُّقْية السحرية من التخلُّف والجهل، ودخلن عالم المفكّرات الباحثات ؟

متى كان الوعاء يوماً عنواناً كافياً للمادّة التي يحوي؟ وكم من وعاءٍ ثمينٍ حمل السُّمَّ الزُّعاف ! وكم من إناءٍ متواضع قدّم البُرْءَ والشّفاء !

ليس بخلع المرأة عباءتها يرتفع مستواها !

وإذا كانت امرأةُ العباءة تحمل بصماتِ بيئتها المتخلِّفة، فإنَّ خلع العباءة ليس هو الحلَّ قطعاً. بل لعلَّه حلٌّ سطحيٌّ ساذجٌ، يُضاهي المشكلةَ الأولى في سذاجته.

إنَّ تنمية المرأة فكريَّاً وثقافيَّاً وروحيَّاً مطلبٌ أساسٌ من مطالب الشريعة الإسلامية. وقد بيَّن الرسول الأعظم ﷺ لأمَّته إحدى فرائض الشريعة الغرَّاء بقوله:

(طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم*، وإنَّ طالبَ العلم يستغفرُ له كلُّ شيء،

* إنَّ لفظة «مسلم» تشمل الذكر والأنثى معاً، كلفظة «المواطن»، و«المؤمن» دون أي تفضيل. كما روي عن أم سلمة رضي الله عنها. أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط: «أيها الناس». فقالت لماشطتها: استأخري عني. فقالت لها الجارية: إنَّما دعا الرجال، ولم يدع النساء. فقالت أم سلمة: إنِّي من الناس. أخرجه مسلم.

حتى الحيتانُ في البحر) [٥].

وروى أبو بردة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(ثلاثة يؤتَوْن أجرَهم مرَّتين:

رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النبيَّ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران.

وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ اللهِ تعالى وحقَّ سيِّده، فله أجران.

ورجلٌ كانت له أَمَةٌ، فغذَّاها فأحسَنَ غذاءها، ثم أدَّبها فأحسن أدبَها، ثمَّ أعتقها وتزوَّجها، فله أجران) [٦].

لقد كانت النساء يطالبن رسول الله ﷺ بمزيدٍ من فُرَص التعليم، وقد رُوي عن أبي سعيد أنه قال:

«جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجالُ بحديثك، فاجعلْ لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه. تعلِّمنا ممَّا علَّمك الله. فقال: (اجتمِعْنَ في يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا). فاجتَمَعْنَ، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلَّمهنَّ ممَّا علَّمه اللهُ» [٧].

من هذه الأحاديث نلمس مدى حرص النساء البالغ على سماع أحاديث رسول الله ﷺ في المسجد، فهنَّ لم يكتفين بمشاركة الرجال في ذلك، بل أردن

(٥) أخرجه ابن ماجه، وتتمَّة الحديث: (... وواضع العلم عند غير أهله كمقلِّد الخنازير الجوهرَ واللؤلؤ والذهب)، كتاب المقدمة، باب:/١٧/، حديث: /٢٢٣-٢٢٤/. ج١/٨١.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب /٧٠/، حديث /١٥٤/. ج١/١٣٤.

(٧) متفق عليه. البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب /٩/، حديث /٦٨٨٠/. ج٦/٢٦٦٦. ومسلم: كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب /٤٧/، حديث /٢٦٣٣/، ج٤/٢٠٢٨.

أن يكون لهنَّ حديثٌ خاصٌّ بهنَّ. وإنَّ استجابة الرسول ﷺ لمطلبهن ما هي إلاَّ إعلاءٌ لشأن المرأة وارتقاءٌ بها، في التصوُّر الإسلامي، إلى درجةٍ رفيعة تُهيب بأمَّة الإسلام أن تعدَّه قدوةً لها في تربية جيلٍ إسلاميٍّ من الرجال والنساء، يعتمد على هذا التصور الراقي.

المسلمةُ تستلفتُ بحجابها الأنظار.

وإذا عدنا إلى قطعة القماش المضحكة، هويةِ المرأة المسلمة، وجدنا أنها يمكن أن تكون رقعة ثمينة وغالية، تستقي قيمتها من الرأس الذي تغطي، ولاننسىَ أن للدول أعلاماً، وأن الأعلام تكبر بالدول، ولاتكبر الدول بأعلامها.

فالحجاب، هوية المرأة المسلمة، يعرِّض المرأة لتسليط الأضواء عليها، ويقف آلاف النقاد أمام صورتها لاقتفاء العيوب والثغرات، وقد وُضعت تحت أدق المجاهر، وخضعت لأعتى أنواع المراقبة، والخطيئةُ التي تغفر لسواها لن تغفر لها أبداً.

وإنَّ إدراك المرأة المحجبة خطورةَ موقفها ليهيب بها أن تكون جاهزة علمياً وثقافياً وفكرياً. حتى تكون جديرة بالوعاء الذي يحتويها، لاظلاً وهمياً لرجل مستبد لاوجود له نهائياً مضموناً أوصورةً من صور الشريعة الإسلامية للإنسان.

أمَّا أمثال هؤلاء الكتاب والباحثين، الذين ذكرت، فلا يمكن أن ننفي عنهم صفة النية الحسنة تجاه الشريعة الإسلامية. بل لعلي أراهم يسعون جاهدين إلى «عَصْرنة» و«تحديث» الدين الإسلامي، ونفي تهمة التخلف والرجعية عن المرأة المسلمة، ودفعهِا في موكب الحضارة الحديثة، وأن تستبدل بهويتها هويةً

أخرى حديثة وبرَّاقة، غير أنها مزيفة «هوية المرأة العصرية»... ولكن يمكن القول: إن بعض النياتِ الحسنة يؤدي إلى الهاوية.

فعندما يمسك هؤلاء المفكرون بمبضع الجراحة ليستأصلوا الأورام الخبيثة، والأفكار الضَّالة، والممارساتِ الشاذةَ الدخيلة على الفكر الإسلامي، عليهم أن يملكوا من الدقة المهنية، والأمانة العلمية، والأعصاب الثابتة، والنزاهة الفكرية، التي تقيهم من المبالغة إلى حدٍّ بتر الأعضاء السليمة، وإلا فإنَّ عملية جراحية بأبعاد «الميكرون» يمكن أن تتحول، مع الأسف، إلى عملية جزارة يستبدل فيها الساطور بالمبضع !

وإذا عدنا إلى ساحة النقد السابقة، نجد أنَّ القفز المفاجىء من زاوية لأخرى سيؤدي حتماً إلى الارتطام بأسوار اللاموضوعية واللاعقلانية التي كان من المفترض تحقيقها، إضافة إلى أن عملية الوثب هذه، ستضيِّع فرصةَ تحديد موقف الشريعة الإسلامية التي تقدم لنا في هذه الساحة مقعد الاعتدال، وترسم لنا حيزاً مساحياً نستطيع الوقوف فيه، والنظر والتأمل، ثمّ إعلان الرأي دون إفراط أوتفريط.

قال تعالى:

﴿ وكذلكَ جعلناكم أمّةً وَسَطاً لتكونوا شهداءَ على النَّاس ويكونَ الرَّسولُ عليكُمْ شهيداً ﴾ البقرة/١٤٣.

وإضافةً إلى استراتيجية الوسط التي تقدِّمها هذه الآية. فإنَّها توضح أنّ رسول الله ﷺ هو الذي بلَّغ للناس شرعَ الله المعتدل، فكان إماماً مُقسطاً، وقدوةً حسنة، ومثلاً أعلى في الاعتدال.

وقد ظهرت في أيامنا هذه فئتان:

أولاهما تشكِّك في أقوال رسول الله ﷺ.

والأخرى تطعن في رواية أحاديثه.

وكلتا الفئتين تسعى إلى تقليص دوره ﷺ في أن يكون شاهداً على وِقفة الوسط التي ارتضاها لنا ديننا الحنيف.

قال تعالى:

﴿ فلا وربِّك لايؤمنونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسِهِمْ حرجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تسليماً ﴾ النساء/٦٥.

جهود تُبذل في غير تكافؤ.

ولو عدنا إلى الكاتبة «فاطمة المرنيسي» لوجدنا أنها قد بذلت قصارى جهدها في كتابها «الحريم السياسي» وذلك لتتبُّع حياة أحد رواة الحديث «أبو بكرة»، بغية إثبات زيف الحديث الذي رواه:

(لن يفلح قوم ولَّوْا أمرَهم امرأة) [(٨)].

وأمام هذه الجهود المبذولة يتراءى أمامي سؤال كبير:

ترى هل استرسلت الكاتبة في تقصي حياة المؤرخين ورواة الحديث، وقدَّمت الجهود المضنية، كما فعلت بحديث أبي بكرة، عندما ألفت كتبها فحكت عن

---

(٨) فاطمة المرنيسي: مصدر سابق. ص/ ٧١-٧٧. والحديث المذكور أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب /١٧/، حديث/٦٦٨٦/. ج/٦/ ٢٦٠٠.

سيرة دفن رسول اللهﷺ [٩]. وقصة حياة «سكينة بنت الحسين» حفيدته [١٠] ؟

أم إن التعب أدركها، فلم تستطع بذل الجهود ذاتها، أولعله الهوى الذي يحثُّ المرءَ أحياناً على التوجه إلى زاوية، والتنحي عن أخرى لاتلائم هواه ؟!

وهكذا نعود إلى دوافع الاستراتيجيات المتَّخذة مسبقاً، والتي تتدخل ليس في إصدار الأحكام والآراء فحسب، وإنَّما في التصدي لنفي بعضها، والأخذ بأخرى.

قال تعالى: ﴿ وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّون بأهوائهم بغير علم إنَّ ربك هو أعلمُ بالمعتدين ﴾ الأنعام/ ١١٩.

---

(٩) تقول في كتابها السابق. ص/ ٥٠/ : «توفي النبي يوم الإثنين، فتُركت جثته منسيَّة في إحدى زوايا غرفة عائشة، ولم تدفن إلا في ليل الأربعاء ... كان جسد الرسول مسجىً في بيته وفوقه عباءة، بينما كان الجميع مشغولين عنه بانتخاب خليفته، ولم يكن هناك من يفكر بغسله ودفنه».

(١٠) إنها تتساءل: «من هنَّ أولئك النساء المسلمات اللاتي قاومن الحجاب ؟ إنَّ أشهرهن سكينة. إحدى حفيدات النبيِّ ﷺ من ابنته فاطمة زوجة علي الشهير، الخليفة الراشدي الرابع، السيء الحظ، الذي ترك السلطة لمعاوية، واغتيل من أول إرهابي سياسي مسلم.
ولسوف تشهد سكينة من جهة أخرى مذبحة والدها في كربلاء، وهذه المأساة تفسر جزئياً تمردَها ضد الإسلام السياسي العاتي والمستبد، وضدَّ كلِّ ما ينتهك حرية الفرد، بما في ذلك الحجاب».
المصدر السابق: ص/٢٤٤.

سلامةُ النظر

بين الأظفار الملوَّنة واللباس الخشن

تحت عنوان «المرأة والقيادة في الإسلام» ألقت السيدة «إلفة الإدلبي» محاضرةً تدعو فيها للاقتداء بالنساء المسلمات اللواتي استلمن، فيما مضى، مناصب قيادية، ومهمات حساسة، فحمل بعضهن السلاح، ودافعن عن الإسلام، كنسيبة بنت كعب [١١]، التي كانت تدافع عن رسول الله ﷺ بسيفها يوم أحد، حين تخلى عنه كثير من الرجال.

عند هذا القدر كانت الصورةُ جليَّة، والشخصياتُ واضحةً، والنقدُ سليماً لاغبار عليه. وفجأة، تنقل الكاتبة عن إحدى المحجَّبات حادثة جرتْ مع صديقةٍ لها تعمل على الآلة الكاتبة في إحدى المؤسسات العامة، وتصفها بقولها:

(وكان لها يدان رخصتان بضَّتان، وكانت تعتني بهما فتطيل أظفارَها، وتصبغها مرةً بالأحمر القاني، ومرةً بالفاتح، أوالبرتقالي، وتـزيِّنُ أصابعَها بخواتمَ ملونة، وكان مكانها مقابلاً لمكان المحاسب، فقال لها مرة: أرجوك يا آنسة أن تنتقلي إلى مكان بعيد عني، لأنني كلما رأيت أصابعك الرشيقة تداعب الآلة الكاتبة ينشغل بالي، فأخطىء الحسابَ، أنا الذي ما أخطأت في حساباتي أبداً) [١٢].

---

(١١) إلفة الإدلبي: «عادات وتقاليد الحارات الدمشقية» ص/٣٩. دار إشبيلية. دمشق/١٩٩٦.

(١٢) إلفة الإدلبي: المصدر نفسه. ص/٤٠.

ثمَّ تتابع الكاتبة، فتسرد نقاشاً كان قد دار بينها وبين سيدة أخرى تبدو:

(مثل كتلة من السواد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها)(١٣).

وكنتيجة للقصة الأولى، والحوار الأخير، يتَّضح موقف الكاتبة بجلاء، فهي ترفض الحجاب صورةً من صور المرأة المسلمة. وتدعم رأيها أخيراً بحوار قصصي بين طالبة في المرحلة الإعدادية، في أوائل هذا القرن، وبين أستاذها الشيخ المعمَّم.

فإذا تأملنا ما ساقته الكاتبة، وجدنا أن مقاييس الاقتداء عندها قد ضاعت، إلى الحد الذي أظهر تناقضاً واضحاً في موقفها، وذلك مدعاةٌ للعجب، بل والتساؤل: ترى على أي أساس تريد أن تبني الكاتبة آراءها ؟ ومن هي المرأة الرمز في تصورها ؟ أهي نسيبة بنت كعب ؟ أم ذات الأظفار الملونة ؟

فإذا كانت تريد الاقتداء بالنساء المسلمات، ومنطلقةً من التصور الإسلامي السليم، فإنَّ عليها أن تبقى ضمن حدود هذا التصور، بكل أبعاده وصوره والتزاماته ونواهيه. فالشريعة الإسلامية تنهى عن التبرج. قال تعالى:

﴿ ولاتَبَرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى ﴾ الأحزاب/ ٣٣.

والطلاءُ الأحمر يعدُّ من مظاهر التبرج، وفتاةُ الآلة الكاتبة ليست مضطرة إلى الزينة، إنِ اضطرها العوز والحاجة مثلاً إلى العمل وكسب قوتها بأسلوب شريف، كي تعيل نفسها إنْ عزَّ المعيل.

---

(١٣) إلفة الإدلبي: المصدر نفسه. ص/٣٨.

المساواةُ والاستقلاليةُ في الإسلام.

ولا أعتقدُ أن إحدى النسوة، اللواتي اتَّخذتْهنَّ الكاتبة قدوةً في بداية قصتها، قد اتخذت أيَّ مظهر من مظاهر الزينة، بل كن يوصفن بأنهن لايكاد المرء يميزهن عن الرجال، بزِيِّهنَّ الخشن الذي أثبتن به فعلاً المساواة مع الرجل، تلك المساواة التي تصدح بها نساء العالم اليوم !

وقد جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(كان رسولُ اللهِ ﷺ يصلِّي الفجرَ، فيشهدُ معه نساءٌ من المؤمنات متلفِّعاتٌ في مُروطهنَّ، ثمَّ يرجعن إلى بيوتهنَّ، ما يَعرفنهنَّ أحد) (١٤).

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت:

(لو أدرك رسولُ الله ﷺ ما أحدثَ النساءُ لمنعهنَّ من المساجد كما مُنِعت نساءُ بني اسرائيل) (١٥).

أما إذا كانت التزامات الإسلام ونواهيه، لاتهمُّ الكاتبة، وليست بِذاتِ وزن لديها - وهذا شأنها - ففي هذه الحال، يجب بناء النقد بعيداً عن التصور الإسلامي، ودون اتخاذ النساء المسلمات الأولَيَات قدوة.

لقد وقفت الكاتبة هنا، أمام لوحة الحجاب، كمن ينظر، وإحدى عينيه سليمة، والأخرى حسيرة، مما يجعل الرؤيةَ مضطربة، والحكمَ لايؤخذ به،

---

(١٤) متفق عليه. البخاري: كتاب الصلاة في الثياب، باب/١٢/، حديث /٣٦٥/، ج١/١٤٦.
ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب /٤٠/، حديث /٤٤٥/. ج١/٤٤٦.

(١٥) متفق عليه. البخاري كتاب صفة الصلاة، باب /٧٩/. ج١/٢٩٦.
ومسلم: كتاب الصلاة، باب /٣٠/، حديث /٤٤٥/. ج١/٣٢٩.

ولايعوَّل عليه.

إنَّ صوتَ الكاتبة «إلفة الإدلبي» ليس إلا واحداً من أصوات كثيرة ارتفعت لتنادي بالمساواة مع الرجل، وهذا النداء سبقت إليه الشريعة الإسلامية قبل أربعة عشَر قرناً من الزمن، ولعل من أسمى مبادئها، تلك المساواة التي اشترعتها للناس، لقد جعلتهم كلَّهم سواء، إنَّما أفضلُهم أقربُهم للتقوى، وأفعَلُهم للخير.

قال تعالى:

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبير ﴾ الحجرات/١٣.

وهكذا سجَّلتْ مساواةَ الرَّجل بالمرأة، عندما أعلنت استقلاليةَ المرأة عن الرجل في حقوقها المدنية المختلفة، معلنةً عن حريتها التامة في التصرُّف بأموالها دون وصايةٍ عليها من أحد، مادامت بالغةً رشيدة.

قال تعالى:

﴿ ولاتتَمنَّوْا ما فضَّلَ اللهُ به بعضَكم على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ ممَّا اكتسبُوا وللنِّساءِ نصيبٌ ممَّا اكتسبنَ، واسألوا اللهَ مِنْ فضلِه إنَّ اللهَ كان بكلِّ شيءٍ عليماً ﴾ النساء/٣٠.

وعندما أعلنَ جلَّ شأنه حقَّ المرأة في الميراث:

﴿ للرجالِ نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدان والأقربونَ وللنساءِ نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدان والأقربون ممَّا قَلَّ منه أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً ﴾ النساء/٧.

واستقلاليَّتها بحقِّها في اختيار زوجها إذا كانت بالغةً وعاقلة:

﴿ فلا تَعْضُلوهنَّ أنْ يَنكحنَ أزواجهنَّ إذا تَراضَوا بينهم بالمعروف ﴾ البقرة/٢٣٢.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(لاتُنكح الأيِّمُ حتى تُستأمر، ولا تُنكح البِكْرُ حتى تستأذن. قالوا: يارسول الله، وكيف إذنها ؟ قال: أن تَسكت) (١٦).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«يا رسولَ الله، إنَّ البكر تستحي». قال: (رضاها صمتُها) (١٧).

وعن خنساءَ بنتِ خدام الأنصارية: أنَّ أباها زوَّجها وهي ثيِّبٌ، فكرهتْ ذلك، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فردَّ نكاحَه (١٨).

وعن ابن عباس: أنَّ جاريةً بكراً أتت النبي ﷺ، فذكرتْ أن أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيَّرها النبي ﷺ (١٩).

كما إنَّ النساء كنَّ يبايعن الرسول ﷺ بأنفسهنَّ، وفي ذلك دلالةٌ على استقلالية المرأة. وتأكيدٌ على أنها ليست مجرد تابع للرجل، بل هي تبايع مثلَه، ولاريب في أنَّ مبايعة المرأة للنبي ﷺ، تُظهر مساواتها مع الرجل في أوضح صورة، قال تعالى:

﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءَكَ المؤمناتُ يُبايعنَكَ على أنْ لايُشركْنَ باللهِ شيئاً ولايسرقْنَ ولايزنْينَ ولايقتلنَ أولادهنَّ ولايأتينَ ببُهتانٍ يَفْتَرِينَهُ بينَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ ولايعصينَكَ

---

(١٦) متفق عليه. البخاري كتاب النكاح، باب /٤٢/ حديث /٣٨٤٣/. ج٥/١٩٧٤.
ومسلم: كتاب النكاح، باب /٩/، حديث /١٤١٩/. ج٢/١٠٣٦.

(١٧) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب /٤٣/، حديث /٤٨٤٤/. ج٥/١٩٧٤.

(١٨) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب /٤٣/، حديث /٤٨٤٥/. ج٥/١٩٧٤.

(١٩) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، حديث /٢٠٩٦/. ج٢/٢٢٢.
وابن ماجه: كتاب النكاح، باب /١٢/ حديث /١٨٧٥/. ج١/٦٠٣.

في معروفٍ فبايِعْهُنَّ واستغفرْ لهنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ الممتحنة/ ١٢.

وإذا بايَعتِ النساءُ رسولَ الله ﷺ فلهنَّ الحقُّ في مبايعة الخلفاء، ثمَّ يصبح لهنَّ الحق في مجالات كثيرة، كاختيار الحاكم أوالنائب في نطاق المعقول من شؤون الحكم.

وأتت المساواة بين الرجل والمرأة في رحاب الثواب الإلهي طالما كانت أهلاً للثواب، وإنَّ ذِكْرَ الثواب مطلقاً يشملها، ولكنّ اللّهَ سبحانه وتعالى خصَّها بالذكر حضّاً لها على فعل الخير، وإظهاراً لكيانها، وتكريماً لوجودها، فجاءَ وعدُ الله لها وعداً مباشراً واضحاً بقوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكرٍ أوأنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيّبةً ولنَجزينَّهُمْ أجرَهُمْ بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ النحل/ ٩٧.

وتكريماً لدور المرأة في القتال والاستشهاد وتعرُّضها للهجرة والأذى، فقد عمد السياق القرآني إلى تخصيص ذِكْرِ الأنثى وثوابها إلى جانب الذَكَر، فقرَنَها به في آيات التبشير بحُسن الجزاء، والحضِّ على الخير، والنهي عن المنكر. قال تعالى:

﴿ فاستجابَ لهم ربُّهُمْ أنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عاملٍ منكُم من ذَكرٍ أوأنثى بعضُكُمْ من بعضٍ فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذُوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيّئاتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ثواباً مِن عندِ اللهِ واللهُ عندَهُ حُسْنُ الثّواب ﴾ آل عمران/ ١٩٥.

وحين يُعدِّد القرآن صفاتِ المسلم، ويرسمُ شخصيَّته مِن قنوتٍ، وصدقٍ، وصبرٍ، وخشوعٍ، وتصدُّقٍ، وصيامٍ، وعفَّةٍ، ودوامِ ذِكرِ الله. فقد اقتضتْ حكمةُ

اللهِ وعدالتُه أنْ يَعِدَ أصحابَ هذه الصفات بالمغفرة والأجر العظيم. يستوي في ذلك الرجال والنساء، وهكذا برزت المساواة كرَّةً أخرى.

قال تعالى:

﴿ إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ ، والصابرينَ والصابراتِ ، والخاشعينَ والخاشعاتِ ، والمتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ ، والصائمينَ والصائماتِ ، والحافظينَ فروجَهُمْ والحافظاتِ ، والذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ أعدَّ اللهُ لهُمْ مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ الأحزاب/ ٣٥.

وفي مجال مساواة المرأة بالرجل قرنَ القرآنُ الكريم بينهما في مقام توجيه النصح والالتزام بجادَّة الأمور.

قال تعالى:

﴿ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهم ويحفظوا فُروجَهُمْ ذلك أزكى لَهُمْ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنعون * وقل للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارهنَّ ويحفظنَ فروجهنَّ ولايُبدينَ زينتهنَّ إلا ماظهر منها ﴾ النور/ ٣٠-٣١.

وقد أظهرَ السِّياقُ القرآنيُّ مساواةَ المرأة بالرجل في مقام القصاص وفي أحكام العقاب، كما أبرزها في مجال الثواب. قال تعالى:

﴿ والسَّارق والسَّارقة فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كسبا نكالاً من اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ المائدة/ ٣٨.

وقال تعالى: ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مئةَ جلدةٍ ولاتأخذكُم بهما رأفةٌ في دين اللهِ إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخر وليَشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾ النور/ ٢.

الحجاب تتويجٌ لخطوات تحقيق المساواة بين الجنسين !

ثم نأتي أخيراً إلى المظهر. لقد أعلنت الشريعةُ الإسلامية المساواةَ بين المرأة والرجل بحَجْبِ مواطنِ الفتنة والزينة التي تتفوق فيها الآن المرأةُ على الرجل وتَفْضُله، فرسم لباسها، وجعل له شكلاً وصفاتٍ وحدوداً أبرزتْها لوحةُ الحجاب التي وقفنا أمامها، فإذا بالهتافات المدوِّية والصيحات المجلجلة التي تنادي بالمساواة قد بُحَّتْ ثمَّ تخامدت حتى خفتت وماتت، وما لبثت أن بعثت من جديد لتعلن رفضَ هذه المرحلة من المساواة !

قال تعالى:

﴿ أفتؤمنونَ ببعض الكتاب وتكفرونَ ببعضٍ فما جزاءُ مَن يفعلُ ذلك منكم إلاخزيٌ في الحياة الدنيا ويومَ القيامة يُردُّون إلى أشدِّ العذاب وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾ البقرة/ ٨٥.

وحدةٌ متكاملةٌ

إنَّ المنهج الإسلامي وَحدةٌ متكاملةٌ؛ وحدةُ عقيدة، وحدةُ شريعةٍ، دُبِّرتْ وأنزلت مِنْ لَدُن حكيمٍ خبيرٍ عليم. وقد جمع هذا المنهجُ بين واقعيةِ الفطرة الإنسانية، ومثاليةِ الاستقامة على الصراطِ الذي رسمَه الله لنا.

والتعاملُ مع هذا المنهج لايقبل رخاوةً، أوإهمالاً، أوإبطاءً، أورفضاً لجانب منه، أوالمناداةَ بما يتلاءم مع هوى كلِّ نفس، أويوافق رغبتها.

لقد أغمضت بعضُ النساء عيناً عن معنى المساواة المتَضمَّن في لوحة الحجاب، وفتَحْنَ الثانية أمام لوحاتِ المساواة الأخرى، التي منحَها إيَّاها الدينُ

الحنيف، فرَضينَ الإرث والمهر والتكريم، أمّاً، وزوجاً، وابنة، وأختاً:

(جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله: مَنْ أحقُّ النَّاس بحُسن صحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟. قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟. قال: أبوك) [٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: **(خيرُكُم خيرُكُم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)** [٢١].

وقال أيضاً: **(لاتَكرهوا البنات فإنَّهنَّ المؤنسات الغاليات)** [٢٢].

وعن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: **(دخلت امرأةٌ معها ابنتان لها تسألُ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتُها إيَّاها، فقسمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثمّ قامتْ فخرجتْ، فدخل النَّبيُّ ﷺ علينا، فأخبرتُه فقال: من ابتلي من هذه البنات بشيء كُنَّ له ستراً من النّار)** [٢٣].

ولكنَّهنَّ رفضنَ المساواة الكامنة في «الحجاب»، أولعلَّهنَّ لم يَرَيْنَها فيه، وتلك الرؤية الحسيرة أدَّتْ إلى تقييمٍ خاطىء للوحة الحجاب يقوده هوى كامنٌ في ضمائر بعضهم.

---

(٢٠) متفق عليه. البخاري: كتاب الأدب، باب /٢/، حديث /٢٦٢٦/. ج٥/٢٢٢٧.
ومسلم: كتاب البرّ والصلة ، باب /١/، حديث /٢٥٤٨/. ج٤/١٩٧٤.

(٢١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب/٦٤/، حديث /٣٨٩٥/. ج٥/٧٠٩.
وابن ماجه، كتاب النكاح /٩/، باب /٥٠/، حديث /١٩٧٧/. ج١/٦٣٦.

(٢٢) أخرجه أحمد في المسند: مسند الشاميين، باب حديث عقبة بن عامر الجهني.

(٢٣) متفق عليه. البخاري: كتاب الزكاة، باب/٩/، حديث /١٣٥٢/. ج٢/٥١٤.
ومسلم: كتاب البرّ والصلة /٤٥/، باب /٤٦/، حديث /٢٦٢٩/. ج٤/٢٠٢٧.

قال تعالى:

﴿ وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه فاحكمْ بينهم بما أنزلَ اللّهُ ولاتتَّبع أهواءهم عما جاءك من الحقِّ لكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ المائدة/٤٨.

إنَّ الحقَّ في هذه الآية يتمثَّل في مصدره، وفي مضمونه.

فالمصدرُ منَ الله سبحانه وتعالى الذي يملك حقَّ تنزيل الشرائع وفرضَ القوانين. أمَّا المضمون فهو حقٌّ لأنه يجب الأخذُ به في كلِّ ما يعرض لنا من شؤون العقيدة والشريعة، وفي كلِّ ما يقصُّ مِنْ خبرٍ أويحمل من توجيه.

وقد علم اللّهُ أنَّ معاذير كثيرةً يمكن أن تقوم، وأن يُبرَّرَ بها العدول عن أيِّ حكم أوتوجيه أنزله الله، وهذه المعاذير ليست إلا وليدةَ أهواء الناس وهواجسهم التي قد تتسرب تحت ظروفٍ معينة أوملابسات خاصة.

التَّمتُّعُ بثقافةٍ كافية

غنيٌّ عن البيان أنَّه ينبغي لمن تصدَّى للنقد أن تكون لديه ثقافةٌ كافية تؤهِّله لاحتلالِ مقعدٍ في ساحة النقد.

وأمام لوحة «**الحجاب**» يجب أن يكون الناقد مزوَّداً بثقافة إسلامية مستقاةٍ من القرآن الكريم، والسنة الشريفة.

فاللوحة هنا ترسم شخصيةَ المرأةِ المسلمة. وإنَّ الجدلَ القائم بين مجموعةٍ من أنصاف وأرباع وأخماس المثقفين، اتخذت لها قسراً أمكنةً في ساحة النقد، أمرٌ يبعث على الفوضى والاضطراب أكثر ممَّا يساعد على إعطاء اللوحة ما تستحق عند تقييمها.

قال تعالى:

﴿ **ومنَ الناس مَنْ يجادلُ في اللهِ بغير علمٍ ولاهدىً ولاكتاب منير** ﴾ الحج/٨.

جدلٌ سَفَسَطائيٌّ يتبلورُ بأشكالٍ غريبة، يبعثُ على الدهشة حيناً، ويثير الشفقة والرثاء حيناً آخر:

- ❖ فمِنْ قائلٍ بأن الحجاب ليس ذا أهمية، المهمُّ الأخلاق، والدين معاملة!
- ❖ ومِنْ قائلٍ بأنَّ الصلاة أكثرُ أهميةً منَ الحجاب، لأنَّ ذكرها وردَ كثيراً، بينما لم يُذكر الحجاب إلاّ مرة واحدة أومرتين.
- ❖ وثالث يقول: إنَّ أركان الإسلام خمسةٌ، وليس الحجاب في عدادها!

كلٌّ واحد من هؤلاء احتلَّ مقعداً وأدلى برأيه، بعد أن اقتحمَ دائرةَ

الجدل كما تقتحم المصيبةُ المكان.

تذكِّرني هذه الآراء بقصةٍ سمعتها وأنا طفلة. تحكي هذه القصة عن ثُلَّةٍ من العميان سُئلوا أن يصفوا الفيل عن طريق اللمس. فقال الأول: إنَّه خرطوم. وقال الثاني: إنَّه أنيابٌ طويلة. وقال آخرون: لا، إنَّه أذنان كبيرتان !

وهكذا جاء وصف الفيل تبعاً للجزء الذي استطاع أن يتحسَّسه كلُّ واحدٍ من هؤلاء العميان. ولكنَّ المبصرَ وحدَه هو الذي يعرف أنَّ الفيل غير ذلك. بل هو كلُّ ذلك.

قال تعالى:

﴿ فإنَّها لاتعمَى الأبصارُ ولكنْ تعمَى القلوبُ التي في الصدور ﴾ الحج/٤٦.

لقد أغلق عمى البصر على هؤلاء الفتيةِ معرفةَ الفيل، كما أغلق عمى البصيرة على أصحاب الآراء المبتورةِ الإحاطةَ بشمولية الدين الإسلامي: منهجاً، وعقيدةً، وشريعة.

فمنهم من وَسَمَ الإسلام بالعنف، ومنهم من وصفه بالتزمُّت أوالتخلّف، أوراَه منهجاً نظرياً غير قابل للتطبيق.

قال تعالى:

﴿ بل كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولـمَّا يأتِهمْ تأويلُه كذلك كذَّبَ الذين مِن قَبْلِهم فانظرْ كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾ يونس/ ٣٩.

فالإحاطةُ بالعلم قبل إفادة الآخرين برأي ما، أمرٌ قد أغفلَه أصحابُ الآراءِ السابقة، فإذا هم يتَّخذون لأنفسهم مقاعدَ في ساحة النقد دون أن يكون لهم الحقُّ في ذلك. والحقُّ يتمثّل في الدرجة العلمية التي تمكِّنهم من الحصول

على مجالسهم بجدارة.

مناقشةُ الآراء الثلاثة.

للردِّ على أصحاب الرأي الأول أقول:

لا أعتقد أنَّ هناك في المنهج الإسلامي مَن وضع الحجاب في كفَّةٍ والأخلاقَ في الكفَّةِ الأخرى ثمَّ قال للمرأة: اختاري، إمَّا هذا وإمَّا تلك، وإيَّاك والأخذَ بكليهما!

وهل هناك نصٌّ في الدستور الإسلامي يلزم المرأة بالاختيار؟!

وهل الجمع بينهما إرهاقٌ أومعاناةٌ أواستحالة؟

أمَّا أصحاب الرأيِ الثاني فأقول لهم: إنَّ تحريمَ القتل لم يذكر في القرآن الكريم سوى مرتين، أسوةً بالحجاب، في مجال التعداد لا التشابه النوعي، فهل يعني أنَّ القتل من الأمور التي يمكن غضُّ النظر عنها؟

أعتقد أنَّ السياق القرآني في مخاطبته للناس دائماً - كما ذكرت في البدء، بـ «يا أولي الألباب» وبـ «يا أولي الأبصار» - كان يرى أن مرةً واحدة كافيةٌ لتلبية النداء. وإنَّ الإنسان العاقل لايحتاج إلى التكرار حتى يفهم، ويدرك، ويبصر، ويطبق!

أمَّا أصحاب الرأي الثالث فقد التبسَ عليهم الموضوع، لسوء الحظ، فظنوا أنَّ أركان الشيء هي كل شيء. إنَّ الأركان هي الأسس التي يُبنى عليها الصرح الشامخ، وبقدر سلامة الأركان ومتانتها يكون البناء قوياً وسليماً.

إنَّ الأركان الخمسة التي بُني عليها الإسلام هي:

الشهادتان، الصلاة، الزكاة، الصيام، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

هذه الأركان لم يرد بينها النهي عن الزنا، أوالربا، أوالسرقة، أوعقوق الوالدين. ولكن سلامة ركن الصلاة تضمنُ سلامةَ أخلاقيات المصلي وانصياعَه لتطبيق الأوامر، والبعدَ عن النواهي ضمن دائرة الرضى الالهي. وللمرأةِ المسلمة لباسٌ ينبغي أنْ تلتزم به عند أدائها صلاتها، وهو ما يمكن تسميته بـ «لباس التقوى»، والذي سنتكلم عنه فيما بعد. قال تعالى:

﴿اتلُ ما أوحيَ إليكَ منَ الكتاب وأقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهَى عن الفحشاءِ والمنكر ولَذِكْرُ الله أكبرُ واللهُ يعلمُ ما تصنعون﴾ العنكبوت/٤٥.

سلامةُ النيَّة

وأعني بها ألا يكون للناقد مواقفُ مسبقةٌ معلِنةُ العداء.

نشرت صحيفة «الأسرة» السعودية مقالاً تحت عنوان «قرارات قضائية ووساطات ودِّية. ألفُ طالبة يخلعن حجابهن في فرنسا».

جاء في هذا المقال:

(عادتْ قضيةُ الحجاب الإسلامي في المدارس الفرنسية إلى الواجهة من جديد، بعد قرارٍ مناقض صدر عن مجلس الدولة ضد الطالبات المحجبات. وبالرغم من وصول القضية إلى المحاكم، يبدو أن وزارة التربية الفرنسية قررت اللجوءَ إلى الحوار مع الطالبات، بدل سياسة التهديد والطرد من المدارس.

مَن كان سبب الفوضى والاضطراب في عمل المؤسسات التعليمية ؟ البنات الصغيرات اللواتي يتمسكن بالحشمة التي يفرضها عليهن الدين. أم وزارة التربية الوطنية التي قررت فَصْلهنَّ، بحجة أن حجابهن يتناقض مع المبادىء العلمانية للدولة، ويشكل علامةً من علامات التمايز الديني.

تدرس /١٧/ طالبة من المطرودات في مدرسة ثانوية بمدينة «ليل» شمالي فرنسا. أمَّا الثلاث الأخريات فإنَّهن يدرسن في إحدى مدارس «توركارت» المجاورة.

وقد جاء قرار الاستئناف ليضع حداً لأملهن الأخير بمتابعة دراستهن

في المدارس الحكومية. وبذلك لن يبقى أمامهن سوى الدروس الخاصة، أوالحصول على الشهادة الثانوية بالمراسلة. وكلاهما صعب المنال) [٢٤].

هذا المقال ما هو إلا واحدٌ من أمثلة كثيرة تعمُّ العالم عن الممارسات المتَّخذة ضد المحجبات في تركيا على الأخص، وأمريكا، وبعض الدول الأوربية.

ومن المدهش فعلاً قراءةُ هذه النماذج من المقالات في عصر ارتفعت فيه شعارات برَّاقة تنادي بالحرية، وتحطيم الأغلال، والانعتاق من القيود. إنَّنا ندقُّ أبواب القرن الحادي والعشرين. عصرٍ شاع فيه إسدال النقاب على الوجوه عندما علت تحته أصوات أصحابها منادية بأنواع من الحريات بعضها مزعوم:

حرية الشعوب واستقلالها ضد الاستعمار.

حرية المساجين وحمايتهم ضد أنواع التعذيب والاضطهاد.

حرية تقرير المصير.

وبعضها مبالغ:

حرية الأطفال ضد ذويهم في حال ممارسة هؤلاء نظاماً صارماً في التربية.

وبعضها مفرط أدى إلى الانحلال:

حرية الجنس بكل أشكاله، الطبيعي، واللاطبيعي: الشذوذ الجنسي أصبح

---

(٢٤) العدد: /١٦٦/. تاريخ /٢٨/ ديسمبر «كانون الأول» ١٩٩٦.

له حرية ينادي بها أصحابها ولهم نوادٍ وحفلات زفاف، وعقود زواج. وأحياء سكنية خاصة بهم «في ولاية سان فرانسيسكو بأمريكا مثلاً».

هذه الأصوات المستترة وراء نقاب من التجمل لم يَعلُ أمامها صوت واحد محتجٌ، أومعارضٌ، أولنقل معاتب.

إنهم يستهدفون الحجاب الإسلامي بعداءٍ مفضوح.

ولكن المدهش فعلاً ألا يستأهل موضوعُ العداء المعلن على الحجاب، إلى التستر والتجمل بأرقِّ أنواع الحجب، وأصبح الصوت المناهض لحجاب المرأة المسلمة يرتفع أجشَّ مدوِّياً مُفزعاً من غير أدنى جهد من أصحابه للترقيق أوالتنعيم.

قال تعالى: ﴿ ومثلُ الذين كفروا كمثَل الذي يَنْعِقُ بما لايَسمع، إلا دعاءً ونداءً صمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لايعقلون ﴾ البقرة/ ١٧١.

بينما تحظى الأزياء الأخرى بالرعاية والتأييد.

لم يذكر التاريخ البعيد أوالقريب عداءً لزيٍّ ما، فقد كان لكل شعب زيُّه، ولكلٍّ ديانة طقوسها ولباسها، وأذكر أنه خلال إحدى زياراتي لكندا. صدر قانون جديد يسمح لرجال الشرطة الكندية الذين هم من أصل هندي من طائفة السيخ، يسمح لهم بوضع العمامة الخاصة بديانتهم على رؤوسهم، عوضاً عن قبعة الشرطة الكندية التي هي من أصل اللباس الرسمي. وقد صدر ذاك القانون بعد اجتماعات مكثفة قامت بها السلطات الكندية.

كما لم يسجل الحاضر عِداءً لزي ما، عدا لباس المرأة المسلمة، من الأزياء الغريبة التي يرتديها الناس في مختلف أنحاء العالم.

فهنالك فئة من الناس تقطن وسَط كندا الـ Mennonit هذه الفئة ترفض استخدام أي إنجاز حضاري، فبيوتهم لاتدخلها الكهرباء، ولاالتدفئة الحديثة، ويتنقلون بواسطة عربات تجرها الخيول. نساؤهم يرتدين ملابس طويلة وقلنسوات خاصة، ويعتمر رجالهم قبعات عالية، ويلبسون ملابس سوداء. هذه الفئة عوملت على أنها مميزة، وتملك صفات فريدة. وكان لها حريتها المستقلة المعلنة، في الحياة واللباس والسكن بالطريقة التي ترتئي.

في عام /١٩٩٥/ كنت في زيارة لولاية كاليفورنيا الأمريكية، وقد جرت حينها حادثة طريفة في إحدى الجامعات، إذ أتى أحد الطلبة إلى الجامعة وهو عار تماماً. وطبعاً فقد حصلت بلبلة واضطراب في صفوف الطلبة، وعلى الرغم من ذلك استمر ذاك الطالب في المجيء إلى الجامعة على هذا النحو لعدة أيام. إلى أن أعلن أحد الأساتذة رفضه القيام بالتدريس بوجود هذا الطالب في حصته. ولما تدخل مجلس الجامعة، وحاول اقناع الطالب بارتداء ملابسه بالحسنى، رفض الطالب وتمسَّك بموقفه، معلناً أنه لايحق لأحد أن يفرضَ عليه ذلك، بمنطق عند ذاته: أنا حرٌّ أفعل ما أشاء!

وعندما حاول أحدهم إقناعه بأن العرف والتقاليد ودواعي الحشمة تلزمه بارتداء ملابسه. أجاب بقناعة مطلقة: مَنْ ذَا الذي يملك الحق بفرض هذه الأعراف والتقاليد؟

أمَّا من جهة الاحتشام، فأنا واثق أنني محتشم أكثر من الجميع ضمن

قوانين وتقاليد صنعتها بنفسي، ولست بحاجة لمن يملي عليَّ اعتقاداتي.

وهكذا، حين اِستُعيضَ عن التشريع الإلهي بالعرف الاجتماعي، ضاعت حدود ومقاييس الحشمة.

وإنَّنا لنجد أن المسافة شاسعة بين الحجاب والعري، ولكنها ما تلبث أن تتناقض وتتقلص تبعاً لأمزجة البشر وطبائعهم وأهوائهم وتمردهم. كهذا الفتى الذي شاء أن يعلن التمرد.

إنَّ قيودَ الحشمة بين البشر، قيودٌ نسبية، لها قوامٌ مطاطيٌّ مرن، أكثر مما يخطر ببال المرء، فالعرف يتغير بتغيُّر الأزمنة، والأمكنة، والأعمار. ودرجات الثقافة، والمستويات المادية والتعليمية والتربوية، وعوامل الجو.

فالعرف في حي راقٍ غيره في حارة شعبية.

والعرف في منطقة معتدلة يختلف عن سواه في منطقة حارة.

ومقاييس الحشمة لدى صبية هيفاء القوام ليست ذاتها عند سيدة بدينة، أوعجوز مسنة.

والعرف على شاطىء البحر مغاير للعرف في مبنى حكومي، أوأمام قبر راحل.

وحسبنا ما أوردناه من أمثلة لم تكن على سبيل الحصر.

وهكذا نجد أن الهوى لاضابط له ولامقياس، وإنَّما هو شهوة النفس المتقلِّبة، ونزوتها المضطربة، ورغباتها، ومخاوفها، ومطامعها التي لاتقف عند حد ولايدعمها حق، ولاتوزن بميزان.

إنَّه الضلال الذي لايُرجى معه الهدى، والشرودُ الذي لا أملَ للعودة عنه.

قال تعالى:

﴿ بل اتَّبَعَ الذين ظلموا أهواءَهم بغير علمٍ فمَن يهدي مَنْ أضلَّ اللّٰهُ وما لهم مِنْ ناصرين ﴾ الروم/ ٢٩.

الإنارةُ الكافيةُ

هل في الحجاب تمييز بين الحرائر والإماء ؟

نشرت صحيفة «الكفاح العربي» مقالاً بعنوان: «كتاب الحجاب يحرك طيور الظلام»، هذا المقال جاء تلخيصاً لكتاب «الحجاب»، لمؤلفه المفكر سعيد العشماوي.

(في كتاب «الحجاب» يعتبر سعيد العشماوي أن الحجاب ليس فريضة إسلامية، إنَّما هو من التقاليد العربية العريقة في مجتمعاتنا، موضحاً هذا الأمر بالكثير من التفاسير. مستنداً إلى آيات الحجاب التي ذكرها القرآن الكريم.

يقول المستشار العشماوي في كتابه:

«إنَّ الآية التي وردت في حجاب النساء تتعلق بزوجات النبي ﷺ وحدَهن، وتعني وضع ساتر بينهن وبين المؤمنين: ﴿ **وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنَّ مِنْ وراء حجابٍ ذلك أطهرُ لقلوبكم وقلوبِهِنَّ** ﴾ الأحزاب / ٥٣.

وبالنسبة لآية الخمار: ﴿ **وقلْ للمؤمناتِ يَغْضُضنَ منْ أبصارهنَّ ويحفظنَ فُروجَهنَّ ولايُبدينَ زينتهنَّ إلا ما ظهرَ منها ولْيَضربنَ بخُمُرهنَّ على جُيوبِهنَّ** ﴾ النور / ٣١. *فإن سبب نزول هذه الآية - كما يقول العشماوي - أن النساء قديماً كن يغطين رؤوسهن بالأخمرة. ويَسدلنها من وراء الظهر، فيبقى النحر - أعلى الصدر والعنق - ولاستر لهما. فأمرت الآية بالإسدال على الجيوب*

لستر الصدر، وعلة الحكم في الآية تعديل العرف الذي كان قائماً، دون أن تقصد وضع زيٍّ بعينه.

أما آية الجلباب وهي: **﴿يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأزواجِك وبناتِك ونساءِ المؤمنين يُدنين عليهنَّ مِنْ جلابيبهنَّ ذلك أدنَى أنْ يُعرفنَ فلا يُؤذَيْنَ﴾** الأحزاب / ٥٩ . *فإنَّ سبب نزول هذه الآية أنَّ العربيَّات كنَّ يتبذَّلن ويكشفْن وجوههن، كما تفعل الإماء اللواتي كن يخرجن إلى الخَلاء في الصحراء، فكان بعض الفجَّار يتعرض للمؤمنات على مظِنَّة أنهنَّ من الجواري، وقد شكونَ ذلك للنبي ﷺ، فنزلت الآية لتضع فارقاً وتمييزاً بين الحرائر والإماء، حتى يُعرفْنَ فلايُؤذَيْن بالقول من فاجر يتتبع الجواري. وهذه هي علة الحكم.*

وإذا كانت القاعدة في علم أصول الفقه، أن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، فإذا وُجدت العلة وُجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم، وإنَّ علة التمييز بين الجواري والحرائر انتفت في العصر الحالي، وبالتالي فلايكون الحكم واجب التطبيق) [٢٥].

إنَّ النقاد من أمثال هذا المفكر الإسلامي المستشار العشماوي، لاتعوزهم الثقافة الإسلامية الكافية، ولا الاستراتيجية الصحيحة، أوالنية السليمة، أوالرؤية الواضحة، ولكنهم عرَّضوا جانباً من اللوحة للضوء، بينما تركوا جانباً آخر منها غارقاً في ظلال النسيان والإهمال.

(٢٥) صحيفة: «الكفاح العربي»، العدد /٩٣٥/، الصادر في: تموز/١٩٩٦.

لقد أحالوا اللوحة إلى مستودع الأشياء القديمة !

ليس العشماوي وحده من نادى بإسدال الستار على هذه اللوحة، واستبعادها من «ألبوم» المرأة المسلمة، صفاتها، لباسها ... إذ هناك غيره كثيرون. فللدكتور المهندس محمد شحرور آراؤه في مؤلَّفه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» (٢٦)، والتي تتفق في النتيجة مع سابقه، وإن اختلفت في طريقة الشرح وأسلوب العرض.

لقد خاض هؤلاء المفسِّرون والمفكرون، رحلةً طويلة في خضمِّ اللغة العربية، وغاصوا في أعماقها باحثين عن أدق معاني الآيات القرآنية بين الكلمات والألفاظ، لبيان مدلولاتها ومفرداتها، ومراميها البعيدة والقريبة، وما بينها، فأتوا بتفاسير ومعان شتى لألفاظ:

الخمار - الجلباب - الجيب، وغيرها.

وما إن عادوا إلى السطح، حتى أفاضوا بين أيادي الناس درراً من أحكام وتفاسير.

ثم إنهم لم يلبثوا أن توغَّلوا في دروبِ التاريخ البعيد ومسالكه، وأمعنوا باحثين متقصِّين عن الأحاديث النبوية والقصص التاريخية، التي رواها المؤرخون والمحدِّثون، وفي نهاية المطاف أبرزوا من جعبتهم قراراً يقضي بإحالة «**لوحة الحجاب**» إلى مستودع الأشياء القديمة، حتى يلفَّها غبار النسيان، وتطويها عتمة السنين.

---

(٢٦) الطبعة الثانية، دار الأهالي، دمشق/١٩٩٠.

من الغريب فعلاً أن هذه الجهود الكثيفة الطويلة الشاقة، ما كانت إلا لتسليط الضوء على جانب واحد من اللوحة، زاوية واحدة عَنَتْ للجميع «اللِّباس للِّباس»، وأغفل الجميع تسليط الضوء على جانب آخر، على زاوية «اللباس والمضمون».

فمن المعلوم أن النقاد الفنيين، عند نقدهم للّوحات العالمية الشهيرة يأخذون بعين الاعتبار نفسيَّة الفنان، وشخصيته، وظروف معيشته. فمثلاً، وأمام أشهر اللوحات العالمية على الإطلاق، وأثمنها «الجوكندا»، لم يدرس النقاد والعلماء حياة مبدعها «ليوناردو دافنشي» فقط، بل عمدوا إلى تتبع الكوامن الخفية لسحر اللوحة، والسِّرِ الكامن وراء الابتسامة الغامضة لصاحبتها، والنظرة الوديعة، والقسمات المتناسقة. فأتى بعضهم برأي أنها يمكن أن تكون حاملاً، والمرأة، حينما يضم كيانها مخلوقاً هو قطعةٌ من ذاتها، تكتسي قسماتها بطابع من السلام والوداعة والأمن والحنان، وتفيض نظراتها بحلم اللقاء القريب، والأمل الباسم.

بين مَظهر الإنسان وجوهره علاقةٌ حميمةٌ

وهكذا، ومن هذه الدراسة على سبيل المثال لا الحصر، نجد أن العلاقة بين مظهر الإنسان وسريرته علاقة حميمة، يعرفها حتى من يملك الحد الأدنى من الثقافة في علم النفس، إذ نجد الناس يميلون في مقام الحداد إلى ارتداء اللون الأسود، وعند الفرح يحلو لهم ارتداء الألوان الزاهية.

فتزهو العروس في ليلتها الأولى بثوبها الملائكي الأبيض، دليل الطهر والبراءة.

وعند الشعور بالكآبة يهمل المرء هندامه، وقد يميل إلى ارتداء الألوان القاتمة.

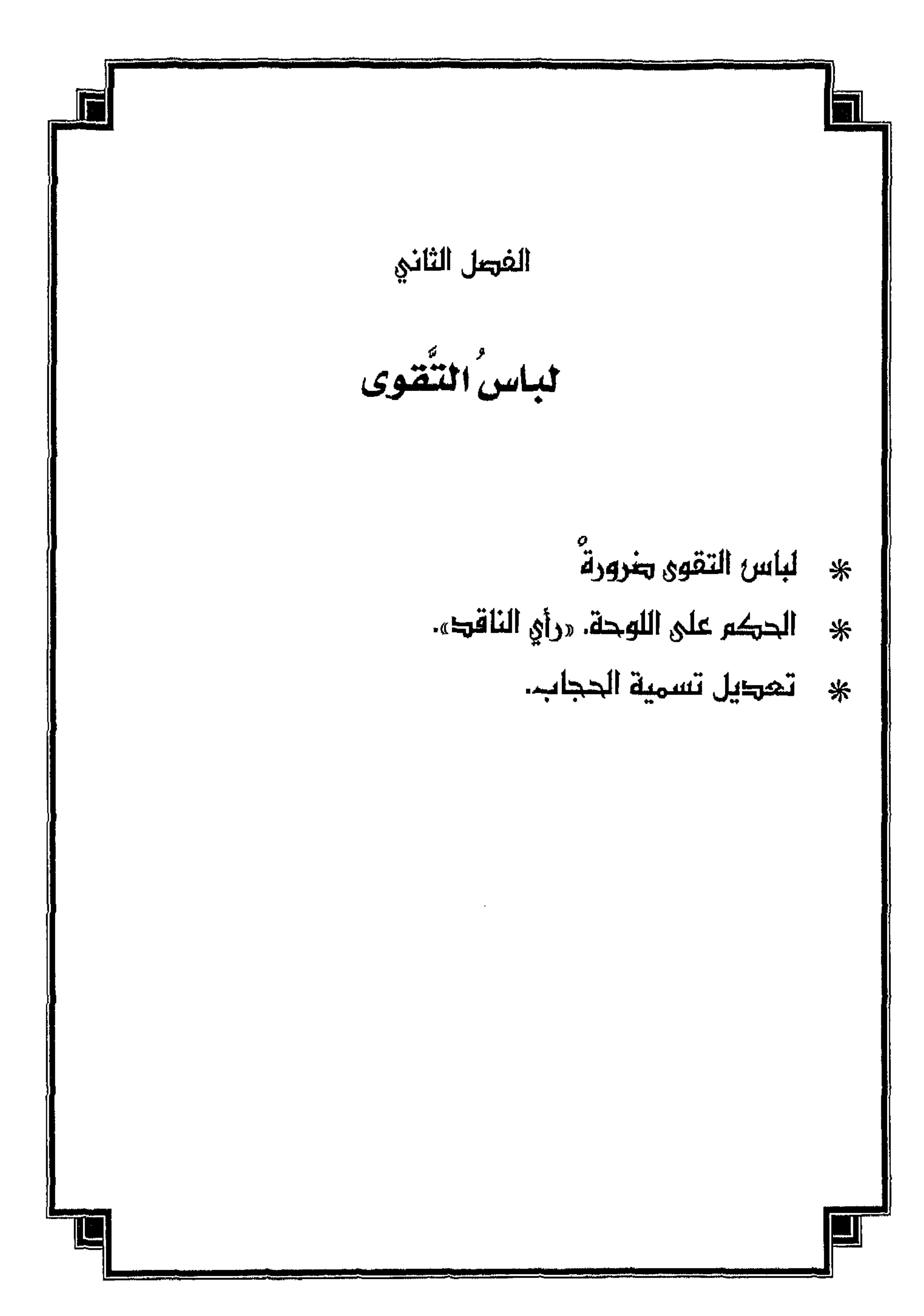
وتفرض بعض المطاعم الفخمة الراقية مثل Maxim ارتداءَ بِزَّةٍ رسمية وربطة عنق، حفاظاً على مستوى اجتماعي لائق.

وفي معظم جامعات العالم يرتدي الخريجون ملابس رسمية خاصة تميِّز الدرجةَ العلمية التي حصل عليها الطالب.

ويُفرض على هيئة المحكمة في دور القضاء لباسٌ خاص يوحي بالصرامة، ويفرض حالةً من الانضباط، تساعد على هيمنة أجواء المساواة والعدل المنشود.

كما يوحي لباس الشرطة في كلِّ دول العالم، بمجرد رؤية صاحبه، بسيادة النظام والأمان، وتوفُّر الحماية والسلامة.

ويفرض لباسُ الجنود الخشنُ المتقشِّفُ ظلالاً من القسوة والرهبة التي يلوح من ورائها نور الحرية والاستقرار.



الفصل الثاني

لباسُ التَّقوى

* لباس التقوى ضرورةٌ
* الحكم على اللوحة. «رأي الناقد».
* تعديل تسمية الحجاب.

وبعد هذا كلِّه نتساءل:

أما للتقوى مِن لباس ؟

أين هو لباس التقوى ؟

قال تعالى:

﴿ يا بَنِي آدمَ قدْ أنزلنَا عليكُمْ لباساً يُواري سَوْءاتِكمْ وريشاً ولباسُ التَّقوى ذلكَ خيرٌ ذلكَ مِنْ آياتِ اللهِ لعلَّهم يَذَّكَّرون ﴾ الأعراف/ ٢٦ .

لباس التقوى ضرورة

قد يتغيّرُ الشّكلُ، ولكن الحشمة تبقى أساساً في اللباس.

إنَّ اقترانَ اللباس بمشاعر التقوى، منذ هبوط آدمَ وزوجِه عليهما السَّلام، إلى الأرض وحتى الساعة، قد يَحُلُّ معضلةً تاريخية لدى الباحثين، ففي ظلال التقوى لابدَّ أنْ تحافظ المرأة على لباس محتشِم، قد يتفاوتُ مِن ديانة إلى أخرى، ومن زمان لآخر، ومن مكان إلى مكان.

فالمرأةُ اليهوديَّة لها لباسها المحتشم، والمرأةُ المسيحية لها زيُّها المتميز، زيُّ الراهبة، وهذا ما يثبتُ أنَّ بين اللباس والتقوى علاقةً متينة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة وجودَ الحجاب لدى الآشوريين القدماء، فقد كان ملوكهم من أوائل الحكام الذين طوَّروا قوانين الحجاب، من القرن الثالث عشَر وحتى القرن الحادي عشَر قبل الميلاد.

وفي بداية القرن السابع الميلادي، وخلال الحكم البيزنطي، كانت النساء المحترمات يعشن منفصلاتٍ ويَظهرنَ متحجِّبات. وكان شكلُ الحجاب، وأقسامُ الجسم التي يغطيها، يعتمدان على الوضع الاجتماعي للنساء:

البنات ـ المتزوِّجات ـ المحظيَّات ـ المومسات.

أما في مصر القديمة، فقد كانت المرأة حرَّةً في الظهور كما تريد، ولم تكن تضع الخمارَ على وجهها.

وقد حوت بعض الوثائق الآشورية القديمة رسوماً تظهر فيها النساء

محجَّبات، كما هو موضَّح في الزخرفة الموجودة على كفن «بيتروسيس»، وهو مُنجِّمٌ عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

ووفقاً للديانة الزرادشتية، كان الأشخاص ذوي «المناصب العالية» في الدولة الفارسية الساسانية يُفصلون عن عامة الشعب بستارة، وليس ذلك الفصلُ إلا مظهراً من مظاهر الحجاب.

ويرى «ويلهاوزن» في مؤلَّفه المتعلِّق بعادة الحجاب بين النسوة العربيات، أن عادةَ ارتداء الحجاب عند النساء العرب، نابعةٌ من رغبتهن في تحاشي العين الشريرة. إلا أنَّ ذلك كان قبل اكتشاف مجموعة قوانين الآشوريين القديمة.

وقد ذكر بعض المؤرخين، أنَّ عادة ارتداء الحجاب، وبخاصَّة في شبه الجزيرة العربية المتاخمة للصحراء، قد يكون للحماية من العواصف، واتقاءً للرمال والغبار.

وتفيد بعض كتب التاريخ، أنَّ نبيلات مكة المكرمة كنَّ يرتدين الحجاب قبل ظهور الإسلام. كما أنَّ بعض النساء كنَّ يغطين رؤوسهنَّ بشعر مستعار، بديلاً عن الحجاب.

ويذكر الحاخام «مناحيم براير»، البروفيسور في الأدب الإنجيلي في جامعة القديس يوسف، في بحثه عن «النساء اليهوديات في الأدب الحاخامي»، أنَّه كان من عادة النساء اليهوديات أنْ يظهرنَ مرتديات غطاءً للرأس، والذي كان يستر، أحياناً، الوجه بكامله، عدا عين واحدة.

وورد في مقالة كتبها أليانور أ. دوماتو:

(من الواضح أنَّ النساء المسيحيات في نجران، إلى الجنوب الغربيِّ من

شبه الجزيرة العربية، كنَّ يرتدينَ الحجاب، ولكنَّ العامَّةَ منَ النساء كان عليهنَّ عدمُ وضع الحجاب. أي أنَّ الحجاب كان للمرأة النبيلة فقط. وكان الظلام أحياناً يُغني عن الحجاب أويساعد عليه).

وفي مدينة تدمر الأثرية، أظهرت الزخارف والنقوش على جدران المعابد رسوماً لنساء محجَّبات، فقد كان محظوراً على المرأة دخولُ المعبد دون حجاب.

قد أنزلنا عليكم لباساً

بعد هذه الرحلة السَّريعة الموجزة عن لباس التقوى، ورؤيةِ مختلف مظاهره وأشكاله ودوافعه، نجد أنَّه لم يأخذ شكلاً واضحاً ثابتاً.

إنَّ لباس التقوى وسترَ الجسد، فطرةٌ خلقها اللّهُ في الإنسان، ثم هي شريعةٌ أنزلها للبشر، وأقدَرَهُمْ على تنفيذها، بما سخَّر لهم في الأرض من مُقدَّرات وأرزاق.

إنَّ كلمة: «وأنزلنا»، في قوله تعالى: ﴿ **يا بَنِي آدمَ قدْ أنزلنَا عليكُمْ لباساً يُواري سوءاتِكمْ وريشاً ...** ﴾، تعني:

شرعنا لكم في التنزيل.

و«اللباسُ» اسمٌ يُطلق على ما يواري السَوْأةَ، وهو اللباس الداخلي.

أمَّا «الرِّياش» فتطلق على ما يسترُ الجسمَ كلَّه، ويُتجمَّل به، وهو ظاهر الثياب.

وهذا الامتنان بنعمة اللباس والزينة دليلٌ على الإباحة، وهو مطابقٌ لفطرة

الإنسان في حبِّ الزينة، دون المبالغة والتباهي، والمظهر الحسن.

والله سبحانه يُذكِّر بني آدمَ بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صوناً لإنسانيتهم عن الانحدار، وتمكينِهم منه بما يسَّرَ لهم من الوسائل.

روى الإمامُ أحمدُ عن عليٍّ رضي الله عنه قال:

كان رسولُ الله ﷺ يقول عن الكسوة:

(الحمدُ للهِ الذي رزقني منَ الرِّياش ما أتجمَّلُ به في النَّاسِ، وأواري به عورتي) [1].

ثلاث بشارات

وهكذا نجد أنَّنا إذا امتطينا صهوةَ بساطٍ سحريٍّ طائر، محطَّتُه الأولى نداءُ الله سبحانه إلى بني آدم. هذا النداءُ الجليل بإنزال **لباس التقوى**، ومررنا كالبرق الخاطف فوق أحقاب التاريخ والأزمان والأديان والأهواء، كهذه الرحلة المقتضبة التي قُمنا بها، لحطَّ هذا البساط الرَّحالَ بنا عند المحطة الأخيرة، التي يعلنها النبيُّ الأميُّ وخاتمُ المرسَلين محمدٌ بنُ عبد الله ﷺ.

هذا الإعلانُ الذي كان في آخرِ ما نزلَ من القرآن الكريم على محمد ﷺ:

﴿ اليومَ يَئِسَ الذينَ كفروا منْ دينكُم فلا تخشَوْهُمْ واخشَوْنِ، اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكمْ وأتممتُ عليكمْ نعمتي ورضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً ﴾ المائدة/٣.

لقد نزلت هذه الآيةُ في حَجَّة الوداع، فكانت إيذاناً بدُنوِّ أجَلِ الرسول

(١) أخرجه أحمد في المسند، مسند العَشرة المبشَّرين بالجنّة. باب مسند علي بن أبي طالب.

الأعظم ﷺ. وهي كلماتٌ هائلة، تحمل في ثناياها حقائقَ كبيرةً، وتوجيهاتٍ عميقة، ومقتضياتٍ وإلزامات، فقد تحققت بهذه الآية ثلاثُ بُشْرَيات. مكثَ بعدها النبيُّ ﷺ إحدى وثمانين ليلةً، ثم قُبضَ وتوفَّاه الله.

ولما سمعَ يهوديٌّ عمرَ رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، قال اليهوديُّ: لو نزلت هذه الآيةُ علينا، نحن معشرَ اليهود، لاتَّخذنا يوم نزولها عيداً.

فقال عمر: فإنَّها نزلتْ في يوم جُمعة، ويومَ عرَفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد [٢].

وفي المحطة الأخيرة، وبعد هذه الجولة الخاطفة بين كتب التاريخ، يستعرضُ الإنسانُ موكبَ الإيمان، وموكبَ الرسالات، وموكبَ الرسل، منذ فجر البشريةِ وهبوطِ آدمَ وزوجِه إلى الأرض، حتى الرسالةِ الأخيرة التي نزلت على محمَّد ﷺ، فكانت رسالةً تخاطب فطرةَ الإنسان التي لاتتبدل ولاتتغير.

قال تعالى: ﴿ **فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها، لاتبديلَ لخَلْقِ اللهِ ذلك الدِّينُ القَيِّمُ** ﴾ الروم/ ٣٠.

إنَّ هذه الرسالةَ شريعةٌ تتناول حياةَ الإنسان من جميع أطرافها، وتشملُ أوْجُهَ نشاطاتها، وتضعُ الأحكامَ التفصيليةَ والقوانين الجزئية التي لاتتبدَّل ولاتتحوَّل بتغيُّر الزمان والمكان.

لقد أعلنت هذه الآية إكمالَ العقيدة، وإتمامَ الشريعة معاً. وهذا هو الدِّين، فلم يَعُدْ للمؤمن أنْ يتصوَّر أنَّ ثمة نقصاً في الدين يتوجب إكماله، أوقصوراً

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور. عند تفسير الآية. ج٢/٢٨٣.

يستدعي الإضافة، ولامحليةً أوزمانيةً تستدعي التطوير أوالتحوير. وإلا فهو ليس بمؤمن، وليس براضٍ بما ارتضاهُ الله للمؤمنين، وهذا هو المعنى الذي وردت به الآيةُ: ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم ﴾، وهذه هي البشارة الأولى.

ثمَّ يقف المؤمن أمام البشارة الثانية: ﴿ وأتممتُ عليكُم نعمتي ﴾.

إنَّ إتمامَ نعمةِ الله على المؤمنين بإكمالِ هذا الدِّين، يشكِّلُ نعمةً هائلةً عظيمة، تُمثِّل مولدَ الإنسان في الحقيقة، كما تمثِّل نشأتَه واكتماله.

فالإنسانُ لاوجودَ له قبل أن يتحرَّر من عبادة العباد، إلى عبادة ربِّ العباد وحدَه؛ وقبل أنْ ينالَ المساواةَ الحقيقية، بأن تكون شريعتُه منْ صُنع الله، وبسلطانه، لا منْ صنع غيره، ولابسلطانٍ سواه؛ وقبل أنْ يعلنَ التحرُّرَ والاستعلاءَ أمامَ كلِّ مَن عداه؛ فإلى الله يتَّجه بالعبادة، ومنَ الله يتلقَّى المنهجَ والشريعةَ والنظامَ.

لقد أخذَ الإسلامُ بيَد الإنسان التائهِ في هجير الصحراء، صحراء الجاهلية التي كان يتخبَّط فيها، وسرابِ الاعتقادات حول ربوبيَّة الأصنام، والملائكةِ، والجنِّ، والأسلافِ، والكواكبِ، وسائرِ الأساطير السَّاذجة، والخرافاتِ السخيفة؛ وقادَه إلى الينبوع الثَّر... إلى المَعين العذبِ من الإيمان بإلهٍ واحد، عادلٍ، كاملٍ، قريبٍ، مجيبٍ، لاواسطةَ بينه وبين أحد من العباد، سواءٌ أكان الوسيط كاهناً أم رجلاً من رجال الدين، فالعلاقة بين الإنسان وخالقه بسيطةٌ واضحة، وبمتناول الجميع، في كلِّ الأماكن، وكلِّ الأوقات.

لقد أنقذهم منَ الضياع في متاهات الجاهلية، في تقاليدها، وعاداتها، وأخلاقها.

أنقذهم من تعاسةِ البنت الموءودة، والمرأة الموروثة، والخمر، والميسر، والربا، والعلاقات الجنسية العشوائية، والتبرُّج، واحتقار المرأة وامتهانها.

وأخيراً. يقف المؤمن أمام **الحقيقة الثالثة والبشارة الأخيرة: ﴿ورضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً﴾**، ليَنعمَ بهذا الظلِّ الوارف الذي أظلَّه اللهُ به، بهذا الملاذ الآمن الذي يكتنفُه، وأيُّ ملاذ بعد هذا الذي يفتحُه اللهُ لنا ؟! وهو رضى اللهِ حتى إنَّه لَيَختارُ لنا منهجَ الحياة كلها.

في ظلال الكمال والتمام والرضى، بحثاً عن لباس التقوى

غير أنَّ الوصول إلى هذا المرفأ يتطلَّبُ جهوداً وتكاليفَ، ويستدعي بذلَ الوُسْع في شكر النِّعمة ومعرفتها، وإدراكِ الواجب بما يُستطاع منه.

إنَّ ارتضاء اللهِ الإسلامَ ديناً لهذه الأمة، ليقتضي منها، ابتداءً، إدراكَ قيمةِ هذا الاختيار، ثم الحرصَ على الاستقامة على هذا الدين، جُهْدَ ما في الطاقة منْ وُسْعٍ واقتدار.

فالسِّياقُ القرآنيُّ أشار في المحطة الأولى إلى أنَّ للتقوى لباساً، غير أنَّه لم يحدِّد، أويدلَّ على شكلِ هذا اللباس ومواصفاته. ولكن إذا انطلقنا في رحلةِ بحثٍ واستكشافٍ وتقصٍ عن هذه الصِّفات والسِّمات، وفي ظلال الكمال والتمام والرضى، فلابدَّ لنا منَ العثور على صفاتِ لباس التقوى المنشود.

قال تعالى: **﴿وقلْ للمؤمنات يَغضُضْنَ مِنْ أبصارهنَّ ويحفظْنَ فُروجَهنَّ ولايُبدينَ زينتهنَّ إلاّ ما ظهرَ منها ولْيَضربْنَ بخُمُرهنَّ على جُيوبهنَّ﴾** النور/ ٣١.

وقال تعالى: ﴿ **يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين يُدنينَ عليهنَّ منْ جلابيبِهنَّ ذلك أدنَى أنْ يُعرفنَ فلا يُؤْذَينَ** ﴾ الأحزاب/ ٥٩.

إن آية «الإبداء» أفادت طلبَ سترِ الأعضاء، إلا الوجهَ والكفين.

أمَّا آية «الإدناء» فقد أفادت طلبَ السترِ الأعلى، الذي يحيط بالثياب، وأنْ يَعمَّ الرأسَ وما والاه من الوجه، وهو الجبين، وأنْ ينضمَّ على البدن ليَحصلَ به تمييزُ الحرائر، بالمبالغة في التستُّر والاحتشام.

وهكذا فإن الشريعة الإسلامية **لم تفرض طرازاً مُعيَّناً**.

فأيُّ طراز يحقق السترَ بشروطه الشرعية.

ويكونُ مناسباً للمناخ السائد من ناحية أخرى.

ومُعيناً على يُسر الحركة من ناحية ثالثة، فهو مقبول شرعاً.

ولكنها فرضت شروطاً ينبغي توفُّرها في كلِّ زيٍّ من الأزياء التي يتعارف عليها الناس، وتختلفُ باختلاف البلدان والأمصار، ذلك أنَّ الشريعة تُقرُّ العرفَ، ما لم يصطدم بحكم من أحكامها، أويتعدَّى حدودها وآدابَها.

والإسلامُ لم يغيِّر أعرافَ الجاهلية في اللباس، ولكنه أدخل عليها التعديل الضروري فحسب. وقد كانت المرأة العربية قبل الإسلام تلبس ثياباً، لكل منها طرازٌ متميز عن سواه، فالخِمارُ وهو غطاء الرأس، والدرع وهو غطاء البدن، والجلباب وهو ما كان فوق الدرع والخمار معاً، والنقاب أوالبرقع وهو ما يغطي وجهَ المرأة ويُبدي مِحجرَ العينين.

ولما جاء الإسلام، في المحطة الأخيرة، فرض آداباً لهذه الثياب، فأوصى المرأة بأمور ينبغي أن تُراعى عندما تلبس تلك الثياب، حتى يكتملَ سترُ بدنها.

فإذا لبست الخمار مثلاً، فعليها أنْ تُسدله حتى تستر بطرفه العنقَ وفتحة القميص، قال تعالى: ﴿ ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرهنَّ على جُيوبِهنَّ ﴾ النور/ ٣١.

وأوصى المرأةَ أن تلتزم بالحجاب، فتدنيه عليها عند الخروج لتتميَّز عن الإماء: ﴿ يُدنينَ عليهنَّ مِنْ جلابيبهنَّ ذلك أدنى أنْ يُعرفْنَ فلايُؤذينَ ﴾ الأحزاب/ ٥٩.

كما أوصى المرأة التي ألِفَت النقابَ أن تخلعه في أوقات معينة، في الصلاة ليكتملَ سجودُ وجهها لله عز وجل، بملامسة الجبهة والأنف للأرض؛ ووقت الإحرام، انخلاعاً عن المألوف للترفُّه، واتجاهاً للتشعُّث.

هذه هي بعض التوصيات التي تعتبر شروطاً في لباس المرأة المسلمة، عندما تلقى الرجال الأجانب.

ليس الحجاب لفئةٍ، أو لزمانٍ، أو لمكانٍ، على وجه التعيين.

وإذا عدنا إلى رأي العشماوي في كتابه «الحجاب»، نجد أن قولَه في الآيات الواردة المعنيةِ بلباس المرأة في سورة الأحزاب أنها لفئة معينة من النساء فقط، ليس صحيحاً، وإلا لما كان الدين تامَّاً.

وأن تحديد هذا اللباس، في الآية السابقة، بفترة ما من ذلك الزمان، لا لكل زمان، ليس صحيحاً أيضاً، وإلا لما كان الدينُ كاملاً.

أما قوله أن القصدَ من هذه الايات تعديلُ زِيٍّ من شكل إلى آخرَ، في ذلك الوقت حصراً، وليس للتعميم على سائر الأزمنة. ففي هذا تحجيمٌ واضح لدور القصة في القرآن، فكأنَّ القرآن الكريم يسعى لوصف الأزياء والملابس وعرضِها وكأنَّه BURDA، أوأنَّه يبغي توثيقَ بعض الحقائق والحوادث التاريخية، دون أن

يكون في هذه الآيات عبرةٌ، وعظة، وتذكيرٌ، وإيقاظ للمكلَّفين في الدين.

فإن غاب هذا عن ذهن مفكِّري الإسلام، أمثال العشماوي، وفهموا أنَّ هذه الايات وصفٌ آنيٌّ لـ «مودة» سائدة، فمَنْذا الذي سيأخذ على عاتقه إحياءَ العظة والتفكير ؟

قال تعالى: ﴿ **كذلكَ نقصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ ما قد سَبقَ وقد آتيناكَ مِنْ لدُنَّا ذِكراً** ﴾ طه/٩٩.

إن القرآنَ الكريم لايسردُ القصصَ لمجرد السَّرد أوالتوثيق، فسِمَةُ الاختصار فيه واضحة، ومعاني التوجيه والإرشاد مبثوثةٌ في كلِّ كلمة وكلِّ آية.

والذِّكر في الآية السابقة هو القرآن، لنتذكَّر به على الدوام لأنه: ﴿ **لايأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ** ﴾ فصلت/٤٢.

ولأنه لم يُعطَ نبيٌّ منَ الأنبياء قبلَ محمَّدٍ ﷺ مثله، ولا أكملَ منه، ولا أجمعَ لخبَرِ ما سبق، وخبرِ ما هو كائن، وفيه الحكمُ الفصلُ بين الناس، وكلُّ ما هو صلاحٌ للبشر في الدين والدنيا والآخرة، وجميعُ مكارم الأخلاق، ومنهاجُ الحياة الكريمة.

قال تعالى: ﴿ **لقد كانَ في قَصَصِهم عِبْرةٌ لأولي الألبابِ، ما كانَ حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديه، وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون** ﴾ يوسف/١١١.

فالقِصص في القرآن فيها عبرةٌ وحكمةٌ وعِظة، لم تذكر عبثاً دون فائدة تُرجى مِنْ ذكرها، وإنَّ حرصَ القرآن الكريم على مخاطبةِ الناس وسردِ قصصٍ منَ التاريخ لجماعة مِنْ «أولي الألباب» إنْ هو إلا حضٌّ على استنباط الحكمةِ

والهدفِ الكامن وراءَ الحديث والقصة الواردة في القرآن الكريم.

فالاقتداء بخطاب «نساء المؤمنين» في قوله تعالى:

﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأزواجك وبناتِك ونساءِ المؤمنينَ . . . ﴾ الأحزاب/ ٥٩.

لايمكن أن يختصَّ بنساء المؤمنين في ذلك العهد حصراً، إلا إذا شئنا أنْ نظنَّ أنَّ عهدنا الحالي خالٍ من المؤمنين، وعليه فإن النساءَ المنتسباتِ إلى رجال لاتشملهم صفةُ الإيمان، لايسري عليهنَّ حكمُ نساءِ الفئة الأولى.

وأعتقد أنَّ هذه نظرةٌ تشاؤمية للغاية، لاتتفق مع قول الرسول ﷺ: (**لاتزالُ طائفةٌ مِنْ أمتَّي ظاهرين على الحقِّ، لايضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك**) [٣].

وفي لباس التقوى تمكينٌ للمرأة مِن أداء الصلاة في كلِّ وقتٍ وكلِّ مكانٍ.

وإذا عُدنا إلى لباس التقوى، محدَّداً بآيتي الإبداء والإدناء، نجدُ أن تطبيق هذه القاعدة في اللباس، هو إعلانٌ منَّا عن قبولنا بالعيش في كنف الرضى الإلهي الذي أقرَّه الله لهذه الأمة، وهو تحقيقٌ عمليٌّ للمرأة لإقامة الصلاة في أوقاتها، حيث يُمكِّنها لباسها من تأديةِ فروض التقوى، والصلاةُ عمادُها، وينبغي ألا يفوتَنا قولُ الرسول ﷺ: (**بين الرجلِ والكفرِ تركُ الصلاة**) [٤].

إنَّ لباس المرأة المسلمة، تطبيقاً لهذه القاعدة، يُمكِّن المرأةَ منَ الصلاة

---

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة. باب /٥٣/، حديث /٢٢٢٩/. ج٤/٥٠٤.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب /٣٥/، حديث /٨٢/. ج١/٨٨.

حيثما حلَّت وأينما كانت: في الحقل، في السوق، في السفر.

والصلاةُ وقوفٌ بين يدي الخالق، واستحضارٌ لهيبته، ومِنْ شعورِ الجلال والهيبة ينبثقُ شعورُ الحياء، وينبثق عن هذا بدوره شعورٌ باستقباح التَّعري، وإرادةٌ للإعراض عنه.

عن محمَّدٍ بنِ زيد بن قنفذ، عن أمِّه، أنها سألت أمَّ سلَمة رضي اللهُ عنها زوجَ النبي ﷺ: **«ماذا تصلِّي فيه المرأةُ منَ الثياب؟**

فقالت: تصلِّي في الخمار والدِّرع السابغ إذا غيَّبَ ظهورَ قدميها» (٥).

وعن أمِّ عطيةَ قالت: **«أُمرنا أنْ تَخرجَ الحيَّضُ يومَ العيدين، وذواتُ الخدور، فيشهدْنَ جماعةَ المسلمين ودعوتَهم، ويعتزلُ الحيَّضُ عن مُصلاهنَّ. قالت امرأة: يا رسولَ الله، إحدانا ليس لها جلباب. قال: لِتُلبِسْها صاحبتها مِنْ جلبابها»** (٦).

وإذا كان هنالك لباسٌ لأهل التقوى، فإنَّ هنالك أيضاً لباساً لمن هم ليسوا من أهل التقوى. فقد قال الرسول ﷺ: **(نساءٌ كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مُميلات، رؤوسهنَّ كأَسْنِمَةِ البُختِ، لايدخلنَ الجنةَ ولا يَجدنَ ريحها)** (٧).

وقد روي عن عائشةَ رضي الله عنها، أن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنها دخلتْ على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رقاق، فأعرضَ عنها رسولُ الله ﷺ، وقال لها: **(يا أسماء، إنّ المرأةَ إذا بلغت المحيضَ لم يَصلُح أن يُرى منها إلا هذا وهذا)**. وأشار إلى وجهه وكفيه (٨).

---

(٥) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، حديث /٦٣٩/. ج١/١٧٣.
(٦) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة /٨/، أبواب الصلاة في الثياب /١/، حديث /٣٤٤/. ج١/١٣٩.
(٧) جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب اللباس، باب /٣٤/، حديث /٢١٢٨/. ج٣/١٦٨٠.
(٨) أخرجه أبو داود، كتاب اللباس، حديث/٤١٤٠/. ج٤/٦٢.

إن الاستناد إلى أحاديث الرسول ﷺ شطرٌ أساسي في الدستور الإسلامي، على عكس ما أفاد العشماوي:

*(أمّا عن حديث الرسول ﷺ: (**لايحلُ لامرأة تؤمنُ بالله واليوم الآخر إذا عركت، أي بلغت، أن تُظهر إلا وجهها وكفيها**) فإن العشماوي يقول: إنّه من أحاديث الآحاد، وهي أحاديثُ للاستئناس والاسترشاد، لكنها لاتنشىء حكماً شرعياً ولاتلغيه، وعلى هذا فإنَّ الحجاب بالمفهوم الدارج حالياً، شعارٌ أساسي، وليس فرضاً دينياً ورد على سبيل الجزم واليقين والدوام)* [٩].

مكانةُ السنّة في التشريع.

وإذا أردنا أن نناقش رأيَ العشماوي هذا، وغيره ممَّنْ ينظرون إلى السنّة كنظرته ، فإنَّ علينا أن نقومَ بمسحٍ لمدلولات كلمة «السنّة» في اللغة وفي الشرع، وقد وجدتُ بنتيجة البحث مايلي:

السنّة تعني لغة «الطريقة»:

ونجد في القرآن الكريم قولَه تعالى:

﴿ سنَّةَ مَنْ قَدْ أرسلنَا قبلك مِنْ رُسُلنا ﴾ الإسراء/٧٧.

وقولَه: ﴿ سُنَّةَ اللهِ في الذين خَلَوْا مِنْ قبلُ ﴾ الأحزاب/٣٨.

وقولَه: ﴿ ويَهديَكم سُنَنَ الذين مِنْ قبلكم ﴾ النساء/٢٦.

---

(٩) «الكفاح العربي: العدد /٩٣٥/، تموز ١٩٩٦.

وهكذا نجدُ أنَّ سُنة الله، في إطارها العام، هي الطريقة.

أمَّا شرعاً:

فتُطلق السُّنَّةُ على ما كان من العبادات نافلةً منقولة عن النبي ﷺ.

وقد تطلق على ما صدرَ عن الرسول ﷺ من قول، أوفعل، أوتقرير، أووصف خَلقي أوخُلقي.

وحين الحديث عن الأدلة الشرعية، تُطلق السنة على فعل الرسول ﷺ وعلى قوله وعلى إقراره، الذي يُنشِئُ حكماً شرعياً.

والآن. ما منزلة السنة في القرآن الكريم. بوصفها مصدراً للتشريع ؟

إنَّ كون السنَّة مصدراً أساسياً للتشريع قضيةٌ تفرضها مسألتان هامتان:

المسألة الأولى:

إنَّ الإقرار بنبوَّة الرسول محمد ﷺ ورسالته، يستلزم الإقرار بمرجعية سُنته، فهو الذي بلَّغ الأمانة «القرآن الكريم» الذي هو كلام الله وشريعته، دون أنْ يكون في هذا التبليغ قابليةُ الخطأ والنسيان والكذب. فقد اقتضى حفظُ رسالةِ الله أن يكون الرسول معصوماً من ذلك كلِّه.

المسألة الثانية:

إنَّ القرآن يعلن أنَّ الرَّسول ﷺ لم يكن يتكلَّم مِنْ منطق ذاتي، بل بوحيٍ من الله: **﴿ وما ينطقُ عن الهوى إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يُوحَى ﴾** النجم/٣-٤، **﴿ قلْ إنَّما أنذرُكم بالوحي ﴾** الأنبياء/٤٥.

وإنَّ لفظة الوحي في الآيتين تفيد أمرين:

١) الوحيَ المباشر: وهو القرآن الكريم.

٢) مضامينَ القول ومعانيه: فالله سبحانه أوحى له بها، وقد عبَّر الرسول ﷺ عن هذا الوحي بلفظ من عنده، أو بفعل أو تقرير منه.

ونجد التأكيد على ذلك في الآيات التالية:

* ﴿ وما أتاكمُ الرَّسولُ فخذُوهُ وما نهاكمْ عنهُ فانتهوا ﴾ الحشر/ ٧.

* ﴿ مَنْ يُطعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ ﴾ النساء/ ٨٠.

* ﴿ فليَحْذَرِ الذينَ يُخالِفونَ عنْ أمرِهِ أنْ تُصيبَهُمْ فتنةٌ أوْيُصيبهمْ عذابٌ أليم ﴾ النور/ ٦٣.

* ﴿ ومَا كانَ لمؤمنٍ ولامؤمنةٍ إذا قضَى اللهُ ورسولُه أمراً أنْ يكونَ لهم الخِيَرَةُ مِنْ أمرهم ﴾ الأحزاب/ ٣٦.

* ﴿ فَلا وربِّكَ لايؤمنونَ حتى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهمْ ثمَّ لايجدُوا في أنفُسهِمْ حَرَجاً ممَّا قضيتَ ويُسلِّموا تسليماً ﴾ النساء/ ٦٥.

* ﴿ فإنْ تَنازعتُمْ في شيءٍ فردُّوه إلى اللهِ والرَّسول ﴾ النساء/ ٥٩.

* ﴿ قلْ إنْ كُنتمْ تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحْبِبكمُ اللهُ ﴾ آل عمران/ ٣١.

عناصرُ الترابط بين القرآنِ الكريم والسنَّة النبوية.

والآن ما هي عناصر الترابط بين القرآن والسنة ؟

١ـ إنَّ السنَّةَ تُبيِّنُ مُحتَمَل القرآن الكريم، فعندما يكون معنى الخطاب القرآني قابلاً لأمرين، وتأتي السنةُ بتعيين أحدهما، فإننا نرجع إلى السنة، ونترك

مقتضى ظاهر الكتاب.

٢ـ السنة بالنسبة للقرآن تبيانٌ وشرحٌ. انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكْرَ لتُبيِّنَ للنَّاس ما نُزِّلَ إليهم ﴾ النحل/٤٤.

فالقرآنُ يحمل سمةَ الاختصار، وهو عبارةٌ عن محاورَ أساسيةٍ، وخطوطٍ عريضة، والسنةُ الشريفةُ تنطلق من هذه المحاور والخطوط، لترسمَ خطوطاً جزئية تفصيلية، توضِّحها وتفسِّرها.

لقد أمرَ القرآنُ بإقامة الصلاةِ، مثلاً، فكيف نقيمها ؟

إنَّ الرسول ﷺ يبيِّنُ ذلك بقوله وفعله: (صَلُّوا كما رأيتُموني أصَلي) [١٠].

ويسري ذلك على بقية الأحكام، كالحج، والزكاة، ....، والحجاب الذي هو موضوع بحثنا.

ثمَّ إنَّ القرآن وردت فيه عموميات، فجاءت السنة فخصصت هذا العامَّ:

﴿ يوصيكمُ اللهُ في أولادكمْ للذَّكر مثلُ حظِّ الأنثيين ﴾ النساء/١١.

هذه الآية تأمر أنْ يرث الأبناءُ الآباءَ، ولكنَّ السنة خصَّصتْ ذلك، فأخبرتنا أن القاتل لايرث.

أمَّا آية: ﴿ والسَّارقُ والسَّارقةُ فاقطعوا أيديَهما... ﴾ المائدة/٣٨، ففيها حُكمٌ مطلق في كل سارقة وكل سارق، ولكن السنة قيَّدت السرقة التي يجري فيها القطع بقيود، كأن تكون قيمة المسروق ربع دينار فصاعداً.

كما إنَّ السُّنَّةَ أتتْ بأحكام كثيرة لم يأتِ بها الكتاب، فكانت تشريعاً جديداً،

---

(١٠) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب /١٨/، حديث /٦٠٥/. ج١/٢٢٦.

ولكنه ملحقٌ بأصل له، مثلُ أحكام الإرث والزواج والملكية العامة.

قال رسول الله ﷺ: (**المسلمونُ شركاءُ في ثلاثٍ: الماءِ والكلأ والنارِ**) (١١).

أمَّا الطعن في رواة الأحاديث، والذي يقوم به كثيرٌ من المستشرقين اليوم، وعدد من الباحثين الإسلاميين الذين قابلت بعضهم في كندا، فأعتقد أن هذا الطعن يجب أن ينال جميعَ المؤرخين، باعتبار أن رواةَ الأحاديث هم مؤرخون أيضاً، وفي هذه الحال ينبغي إلغاءُ جميع كتب التاريخ والمراجع التاريخية، فعلام الإبقاء على بعضها، والطعن في بعضها الآخر ؟!

علماً بأن هنالك الكثير من الكتب التي توضِّح كيفيةَ تدوين السنة، وتكشفُ بجلاء عن فترة ما قبل التدوين.

وقد كُتب عن الإمام البخاري أنه كان، قبل تدوينه أيَّ حديث، يغتسل ويتوضأ ويصلِّي ركعتين لله تعالى على نية السَّداد. ولا أعتقد أنَّ أحداً من المؤرخين في العالم، منذ بداية عملية التأريخ هذه إلى يومنا هذا، كان لديه هذا الحرص وهذه الخشية على صحة المعلومات المؤرَّخة.

من هذا السرد المقتضَب، الذي يقتضي دراسةً وافيةً شاملة، يمكن أن نصلَ إلى أن السنةَ دليلٌ شرعي كالكتاب ،وقد أتى قولُه ﷺ: (**تركتُ فيكم ما إنْ تمسَّكتُم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتابَ الله وسنَّتي**) (١٢) تأكيداً على ذلك.

إنَّ المستشار العشماوي، في اعتباره حديثَ الرسول ﷺ: (**يا أسماء إنَّ المرأةَ إذا بلغت المحيض...**) حديثاً للاستئناس والاسترشاد، قد ألقى ظلالاً كثيفة

(١١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، حديث /٣٤٧٧/. ج٣/٢٧٨.
(١٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب /١/، حديث /١/. ص ٧٨٤.

على اللوحة، متجاهلاً الآيات القرآنية التي تتفق مع الحديث في ذلك، بل إنه سلط على هذه الآيات أنواراً باهتة، فلم يرَ منها سوى أنها روايةٌ، أوقصةٌ دون هدف.

في حين أن هدفَ القرآن الكريم هو اختـزانُ المعلومات، حتى يحين وقت الحاجة إليها، فتسري فائدتها في كلِّ وقت وفي كلِّ زمان.

ومن هنا تأتي صلاحية الشريعة الاسلامية لكلِّ زمان ومكان، باعتبار أنَّها تعالج مشاكلَ الإنسان في كلِّ الظروف، مهما تجدَّدت وتنوَّعت هذه المشاكل. فالإنسانُ هو الإنسان ـ منذ عهد آدمَ عليه السلام والنداءِ العُلْوي له، بارتداء لباس التقوى ـ في غرائزه، وحاجاته العضوية... فمهما تطوَّرت وتنوَّعتْ، فالشريعةُ واسعةٌ لمعالجتها، إلا أنَّ هذه السَّعة لاتعني المرونةَ المبالغَ بها إلى حد التغافل عن إحياء الذِّكر، وإيقاظِ العظة، واستخلاص العبرة، ضمن دائرة الحق المستند إلى العقل.

قال تعالى: ﴿ **قُل إنِّي على بَيِّنةٍ منْ ربِّي وكَذَّبتُمْ به، مَا عندي ما تَستعجلونَ به، إنِ الحكمُ إلا للهِ يَقُصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين** ﴾ الأنعام/ ٥٧.

وهكذا فإنَّ الحقَّ والباطل لايجتمعان، لأنَّ الحقَّ قائمٌ على الدليل والعقل، والباطلَ منبعثٌ من الأهواء والشهوات، واللهُ سبحانه يقصُّ الحقَّ، أي يقصُّ على رسوله القَصص الحق في جميع أخباره: ﴿ **قُل إنِّي على بَيِّنةٍ منْ ربِّي وكَذَّبتُمْ به، مَا عندي ما تَستعجلون به، إنِ الحكمُ إلا للهِ يقصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين** ﴾.

أي أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد طُلب منه إيضاح سُبُلِ الهداية.

هذه الآية كفيلةٌ بغمر لوحة الحجاب بنور تنجلي معه الرؤيةُ، وتتنحَّى الظلال،

لتبدو مكانةُ الرسول ﷺ في التبليغ والتفويض، ليُكمل رسمَ اللوحة بقلم عريض، مدادُه الحقُّ وغايتُه الهدى.

الحكمُ على اللوحة
«رأيُ الناقد»

بناءً على ما سبق، يمكن القول: إنَّ أيَّ ناقد يقفُ أمام هذه اللوحة، لوحة الحجاب:

- **وِقفةَ الاعتدال.**
- **وينظرُ إليها بعينين سليمتين.**
- **نِظرةً خاليةً منْ نزَعات العداء.**
- **معتمِداً ضوءاً كافياً.**
- **ولديه الكفايةُ من الثقافة الإسلامية «القرآن الكريم والسنة الشريفة».**

لابد أنْ يعلن أنَّ لهذه اللوحة قيمةً رفيعةً، تستحق بناء سياج متين حولها، كي تبقى لها مكانتُها دون مَساس.

فما هي عناصر هذه القيمة ؟

العنصر القيميُّ الأول.

في هذه اللوحة تحقيقٌ فعليٌّ للمناداة بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فإن كانت المرأة المسلمة تجأرُ مطالبةً بهذه المساواة، حقّاً أكَّدت الشريعة الإسلامية نصيبها فيه، فإنَّها يجب أنْ تحصل عليه شكلاً ومضموناً.

وإنَّ تطبيق اللباس الإسلامي، كما وصفه الرسول ﷺ، هو الخطوة الأولى

نحو تحقيق المساواة المنشودة.

العنصر القيميّ الثاني.

المحافظةُ على علاقةٍ متوازنةٍ تحكمها الفطرةُ السليمةُ، التي أوجدها الله في الإنسان مِنْ ذكر وأنثى.

فيسعَى الرجلُ غريزياً نحو المرأة، يحثُّه شوقٌ فطريٌّ سليمٌ لرؤيةِ ما وراء الحجاب، وترسم له الشريعةُ الإسلامية مسلكاً وحيداً، يطرقُ فيه الرجلُ باب مؤسسة الزواج، التي تعيش في ربوعها المرأة موفورة الكرامة، ناعمةَ البال، قريرةَ العين.

ولن يفوتنا في هذا المجال أن نلاحظ التفكُّك الأسريَّ والاجتماعي، عندما أصبحت المرأة في دائرة المباح، ليس في المظهر فقط، بل بالانسياق تدريجياً نحو إقامةِ علاقاتٍ عشوائية بصِفة الصداقة، ممَّا أدَّى إلى أن تصبح سلعةً يتداولها كل مَنْ تُقابل.

وقد تتردى الأوضاع إلى ما هو أسوأ، ويعاني الرجل أحياناً من فتور العاطفة، إذ أنَّ كلَّ ما هو معروضٌ مهانٌ، فيسعى إلى ارتياد نوادٍ لها عروضٌ خاصة، أومراقبةِ أفلام معينة، كي ينقذ ما يمكن إنقاذه من فطرته المفقودة.

وفي كثير من الأحيان تبوءُ هذي المساعي بالفشل، فينغمس في متاهات الشذوذ الجنسي، كنوع من التجديد لحواسه وغرائزه، فيسقط في مهاوي الأمراض المستعصية، ويصبح منبوذاً من مجتمعه، مشاراً إليه بالبَنان.

العنصر القيميّ الثالث.

﴿ألا بِذِكْرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ﴾ الرعد/ ٢٨.

القربُ منَ الله مسألةٌ تبعث على الشعور بالراحة والأمان.

والإنسانُ المسلم يقف بين يَدَي خالقه خمسَ مرات في اليوم، خاشعاً، خاضعاً، حاضرَ القلب والجوارح، وقد يكونُ الخشوعُ توأمَ الشعور بالحياء، والحياءُ يحمل سمة الاحتشام، محدَّداً بلباس التقوى الذي تكلَّمتُ عنه، فلا يظهر من المرأة، التي هي موضوع بحثنا، إلا وجهُها وكفَّاها.

وبناءً على ذلك، يمكن القول:

إذا تقيَّدت المرأة بهذا اللباس لدى ظهورها أمام الأغراب من الرجال، فهي يمكن أن تؤدِّي صَلاتها أينما كانت وحيثما حلَّت، والصلاةُ عماد الدين الإسلامي، وقد قال الرسول ﷺ: (**بين الرجلِ والكفرِ تركُ الصلاة**)، كما ذُكر سابقاً.

وقد حدد القرآنُ الكريم الأفراد الذين يمكن أن يدخلوا ساحة المرأة وهي دون حجاب، فقال تعالى:

﴿**وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ منْ أبصارِهنَّ ويحفظنَ فروجَهنَّ ولايُبدينَ زينتَهنَّ إلا ما ظهرَ منها ولْيَضربْنَ بخُمُرِهنَّ على جيوبِهنَّ ولايُبدينَ زينتَهنَّ إلا لبُعولتِهنَّ أوآبائِهنَّ أوآباءِ بعولتِهنَّ أوأبنائِهنَّ أوأبناءِ بعولتِهنَّ أوإخوانِهنَّ أوبَني إخوانِهنَّ أوبَني أخَوَاتِهنَّ أونسائِهنَّ أوما ملكتْ أيمانُهنَّ أوالتابعينَ غيرِ أُولي الإرْبَةِ منَ الرِّجالِ أوالطفلِ الذينَ لم يَظهروا على عوراتِ النِّساءِ ولايَضربنَ بأرجلِهنَّ ليُعلَمَ ما يُخفينَ منْ زينتِهنَّ وتُوبوا إلى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلَّكم تُفلحون**﴾ النور/ ٣١.

وقد سُئلتُ ذات مرة، أثناء حديث لي مع إذاعة الـ B.B.C لندن، عن الحكم

في النساء المسلمات المصليات، الصائمات، اللواتي يلتزمنَ فرائضَ الشريعة الإسلامية، ولكنَّهن يرفضنَ الحجاب، بسبب انتمائهنَّ إلى إحدى فِرَق النقد الخمسةِ الآنفة الذكر.

وكانت الإجابة تقضي، حتماً، بالعودة في الحكم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو القائل: ﴿ وكفَى بِنَا حاسبين ﴾ الأنبياء/٤٧.

ولكنِّي أرى تساؤلاً كبيراً يبرز أمام هذا المثال: ماذا تصنع إحدى هؤلاء النسوة المصليات، إذا حضرها وقت الصلاة، وكانت خارج المنزل، مثلاً على متن طائرة أوسيارة، في السوق، أوفي النزهة. في مكان العمل، المدرَسة، المصنع، المختبر... الخ ؟

هنالك أحد احتمالين:

إما أنْ تفوتها الصلاة، لأنها لاترتدي «لباس التقوى»، الذي يتيح لها الوقوفَ بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

أوأنها، وهي حالة نادرة، تحمل في حقيبتِها «لباس التقوى» هذا، فترتديه، وتصلِّي، ثم تخلعه عند انتهاء الصلاة.

وهكذا، وكما قلتُ في المقدمة، يتحوَّل هذا اللباس إلى زيٍّ رسمي، يقترن بدقائقِ دوامٍ محددة، للقرب من الله أثناء الصلاة.

وأمام هذا التساؤل تظهر حقيقةٌ عظيمة، مفادها أن التقرُّب من الله، في الشريعة الإسلامية، عمليةٌ ليست مقترنةً بطقوس معينة، متى انتهى المسلم من أداء ركوعه وسجوده واعتداله ابتعدَ عن الله.

وليست مرهونةً بمكان خاص، المسجد أوالجامع، متى غادره المسلمُ نسيَ

ربِّه.

وهي كذلك ليست معتمدةً على لباس رسمي. إذا لبسَه تذكَّر خالقه، ثم ينساه عندما يخلعه، لأنه لم يعد بإمكانه الصَّلاة.

صلاةُ المسلم، في رأيي، ليست أبداً محدودةً بالدقائق التي يقفُ فيها مؤدِّياً أركانَ الصَّلاةِ المعروفة، فالمسلمُ، في الشريعة الإسلامية، في حالة صلاةٍ، أوصلة دائمة مع ربِّه، وهذه الصلةُ تبدأ عندما يبلغ سنَّ الرشد، ولاتنتهي إلا بانقضاء حياته.

هذه الصلة يمكن أنْ يبلغها المسلم في عمله، وفي فراغه، في سعادته، وفي شقائه، في صباه، وفي شيخوخته، في صحته، وفي سُقمه، في وحدته، أووسطِ الناس، في شدته، وفي رخائه، مع مَن يُحبُّ، وأمام من يكره، مع أخيه المسلم، وأخيه الإنسان غير المسلم، مع عشيرته، أوخُلاَّنه، مع أصحابه وجيرانه.

فإن كان لباسُ التقوى هو لباسَ الصلاةِ للمرأة المسلمة، فما أحرى بها أن تكون دائمةَ الصلاة، ودائمة القربى منَ الله عز وجل.

العنصرُ القيميُّ الرابع.

حَجْبُ مواطن الفتنة التي تتميَّز بها المرأة.

لقد تكلَّمتُ عن آيتي الإبداء والإدناء، وعن حديثِ الرسول ﷺ بمشروعية إظهارِ الوجه والكفين.

ولي هنا وِقفةٌ قصيرة مع مَن يفرض على المرأة إخفاءَ وجهها وكفيها.

إنَّ هاتين الآيتين، يضافُ إليهما حديثُ الرسول ﷺ، تفيدُ كلُّها في الإظهار،

فضلاً عن الإفادة في الإخفاء. وإنَّ إظهارَ الوجهِ يحولُ دونَ وقوعِ كثيرٍ منَ الالتباس الذي يمكن أن يتمَّ في ظلمةِ ما تحت النقاب، إذ يمكن لرجل ما أنْ يتخفَّى في زيِّ المرأة ويغطي وجهَه، أويمكن لإحدى النساء أنْ تنتحلَ شخصيةَ امرأة أخرى، أويمكن لإحداهن أنْ تقوم ببعض التصرفات المشبوهة دون أن تُعرف.

وإنَّ إظهارَ الكفين يؤدي النتيجةَ ذاتَها، لأنهما يحملان البصمات المميزة لأي إنسان. فوراء إخفاءِ البصمات يمكن إخفاءُ الكثير من الممارسات الخاطئة.

وفي الحديث عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول اللهِ ﷺ قال له: (**يا عليّ. لا تُتْبِع النظرةَ النظرة، فإنَّ لك الأولى، وليست لك الآخِرة**) [١٣]. والنقابُ يوفِّر على الرجل مجاهدةَ نفسه لكيلا يتجاوز النظرةَ الأولى، وبالتالي تقعُ مسؤوليةُ اتِّقاء الفتنة على المرأة فقط، ويُعفى الرجل من ممارسة دوره المفروض عليه في هذه الساحة، وهذا ليس من الإنصاف في شيء.

وإذا أردنا الوقوفَ ضمن حيِّز الفرض، فلا يمكن أن نقول: إنَّ إخفاءَ الوجه واليدين يقعُ ضمن هذه الدائرة. ولكن ومع الاستناد إلى نداء الله سبحانه المتكرر بـ «أولي الألباب» يمكن أن تلجأ المرأة إلى إخفاء وجهها، إذا كانت على قسط عظيم من الجمال يمكن أن تثير فتنة، واتقاءً للفتنة.

وهذه الحالة نادرة، قد تشكل نسبة ١ ٪، أو أقل من ذلك، وهي مقيَّدة بالشكل الذي لايمكن أن يجري معه انتحال للصفات بطريقة ما.

(١٣) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، حديث /٢١٤٩/. ج٢/٢٤٦.
والترمذي: كتاب الأدب، باب /٢٨/، حديث /٢٧٧٦/. ج٥/١٠١.

ومهما يكن، فإن الحجاب أو «لباس التقوى» مع ظهور الوجه واليدين، محدَّداً بمراقبة السمع والبصر والفؤاد، يغلق الكثير من منافذ الغيرة والحسد بين النساء، كما يوصد أبواباً واسعةً قد يدخلها بعض الرجال في مجال المقارنة، بين زوجته وزوجة صديقه، أوصديقة زوجته، أوجارته أو ....، مما يعرِّض كيان الأسرة ويدمِّر بنيتها وتآلفها وانسجامها.

وكم سمعنا عن زيجات انتهت بالدمار نتيجة لمثل ذلك. والشريعة الإسلامية شريعةٌ تقدِّس الأسرة، وتسعى لسدِّ جميع المنافذ التي من شأنها أن تزعزع بناءَها. فإنْ كان بناء الأسرة متيناً، كان صرح المجتمع قوياً سليماً متماسكاً.

العنصرُ القيميُّ الخامس:

قد يقولُ البعض: أين الحكمة إذن في الحجاب لامرأة مسنَّة لم تعدْ تملك مِنْ مقوِّمات الفتنة ما يضطرها إلى إخفائه؟

إنَّ الحجابَ هويةٌ تحملُ صفةَ الانتماء، والانتماءُ بدوره مسؤوليةٌ تُلزم المرأةَ بالارتقاءِ دائماً، كي تكون جديرةً بحمل هذه الصفة.

وهذه المسؤولية ملقاةٌ على كاهل المرأة في أيِّ سن، منذ سنِّ البلوغ، أي عند اكتمال العقل وحتى نهاية الرحلة، رحلة العمر.

إنَّ هذا الاعتبار يعيد إلى الأذهان الحكمةَ التي نوَّهتُ إليها في كتابي السابق:

«ليست الحقيقةُ التي تجعل الإنسان عظيماً، إنَّما الإنسانُ الذي يُضفي على الحقيقة عظمَتها».

كم هي متعددة وكثيرة تلك الحقائق التي نملك، والقليلُ منّا من يجعلُ منها شيئاً عظيماً !

فالحبُّ حقيقة، وهو يبدو للوهلة الأولى حقيقةً رائعة، ولكن كم هي التطبيقات الشوهاء التي جعلت من تلك الحقيقة حقيقةً بائسة ؟!

فهنالك الحبُّ المدمِّر، والحبُّ الأناني الذي يأخذ ويأبى العطاء، وهناك الحبُّ القاتل، «ومنَ الحبِّ ما قتل».

والزواج حقيقة، ولكن كم منَ الأزواج جعلوا منْ هذه الحقيقة حقيقةً مشوَّهة، كانت كثيرٌ من النساء يتمنينَ، في ظلها، لو أنهنَّ لم يعرفنَها، وبقينَ في عداد العوانس. وسأكون منصفة، وأقف أيضاً في صف الأزواج، وأقول للكثيرات: كم منَ الزوجات لم تحترم دخولَها إلى مؤسسة الزواج، وأساءت لقوانينها، وجعلت الكثير من الرجال يرون في قضبان القفص الذهبي قيوداً صدئة شائكة ؟!

الحجاب مسؤولية،

وليس بالشكل وحده يكون الانتماء إلى الإسلام.

ولنَعُد إلى حقيقتنا الأولى التي نحن بصددها:

إن الحجاب «لباسَ التقوى» هويةٌ تدلُّ على حقيقة انتماء المرأة المسلمة لدينها، ويلزمُها أن ترتقي بهذه الحقيقة إلى ما يجب أن تكون عليه، فلانرى بعد ذلك مسلمات لاينتمين إلى الدين الإسلامي إلا بالحجاب، ولانرى فرْقاً كبيراً بين الإسلام وكونه حقيقة عظيمة خالدة، وبين مسلمين لاتحمل تصرفاتهم ملامحَ هذه العظمة وهذا الخلود.

هنالك الملايين من المسلمين في العالم اليوم، ولكن كم منهم الذي أحسَّ بمسؤولية الانتماء ؟

إنَّ من يشعر فعلاً بهذه المسؤولية هو الذي يعيش حقيقة الإسلام، في جوارحه وأعماله وأقواله، والحقُّ أنَّ هذه هي شروط الداعيةِ، أوالداعي، إلى هذا الدين الحنيف.

والدعوة الدينية لن تتمَّ أبداً بواعظ يجلس بين رهط من القوم، فيذكر اللهَ ويصلي على نبيِّه ﷺ، ثم يسترسل في سرد حكايات وأقاصيص، يهلل له بها المستمعون، فالسلف الصالح ليس بحاجة إلى أكفٍ تصفِّق، ولا إلى ألسن تمتدح، ولا إلى روايات تشيد بأعمالهم، إنه بحاجة إلى تطبيق لما قاموا به.

كان شعارهم دائماً حديث رسول الله ﷺ، الذي لو طُبِّق في عصرنا هذا لأغلقت دور القضاء أبوابها، ولاختصرتْ نفقات باهظة لآلاف، بل ملايين الكتب والمجلدات والأبحاث التي تتعلق بحقوق الإنسان، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتربية...

إنه الحديث القائل:

(لايؤمنُ أحدكُم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه) (١٤).

إذن هذا هو الشرط الأول للإيمان. وإذا طُبق هذا الشرطُ ساد السَّلام، وعمَّ الخيرُ الأرضَ.

إنَّ المسلم الذي يُطبِّق هذا الشرط على نفسه، هو الذي يستحق أن يتربعَ

(١٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب /٦/، حديث /١٣/، ج ١٤/١.

على منبر الوعظ، ويصبح المسلمون كلهم دعاة لهذا الدين، والمرأةُ المسلمة لايمكن أن ترتقي سلمَ الدعوة دون هوية تميزها عن باقي النساء. والدعوة، كما قلت، يمكن أن تُمارَسَ بدءاً من أبسط العلاقات حتى أعقد الأحكام.

والرسول ﷺ عندما علَّق الإيمان بمقدار ما يحبُّ المرء لأخيه، لم يذكر أخاه المسلم، بل ذكر أخاه فقط، وهو بذلك قد فتح أمامَ كل مسلم ومسلمة الدعوةَ من خلال تعاملِ المسلم المالي والاجتماعي مع إخوانه المسلمين، وغير المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى، فالكلُّ له حريته واحترامه وحقوقه وواجباته [١٥].

(١٥) سأحكي، في فصل «أنا والحجاب»، قصة قصيرة تعزّز رأيي في أسلوب الدعوة ودور الحجاب في ذلك.

تعديلُ تَسميةِ الحِجَاب

إبدالُ تعبير «لباس التقوى» بـ «الحجاب».

إنَّ التعبيرَ الدارج بإطلاق لفظة «الحجاب» لوصف لباس المرأة المسلمة خطأ يستدعي الإيضاح والتصحيح، فقد صار شائعاً على ألسنة الناس تسميةُ اللباس الشرعي حجاباً، وإطلاق لفظ «محجَّبة» على المرأة الملتزمة بهذا اللباس، ولكن بعد أنْ تبينَ لنا ممَّا تقدَّم أنَّ هذا اللباس هو إطلاق لصفة التقوى على المرأة، فيمكننا أنْ نستبدل بهذه الكلمة صفةَ «لباس التقوى» فيما سيلي.

وإن الآياتِ الواردةَ في القرآن الكريم تفيد أنَّ الحجابَ يعني شيئاً يحجز بين طرفين، فلا يَرى أحدهما الآخر، أي تنعدم معه الرؤية تماماً، ولايمكن أن يعني لباساً يلبسه إنسان، لأنَّ اللباسَ ـ أيَّاً كان قدرُه ونوعه، ولو ستر جميعَ بدن المرأة حتى وجهَها ـ لن يمنع هذه المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا شخصَ المرأة، وإن تسربلت بالسواد من قمة رأسها مع وجهها، حتى أخمص قدميها.

والآيات التي وردت فيها لفظة «الحجاب» تفسِّر ذلك. قال تعالى:

* ﴿ونادَى أصحابُ الجنَّة أصحابَ النَّارِ أنْ قدْ وجَدْنَا ما وعَدَنا ربُّنا حَقاً، فهلْ وجدتُّمْ ما وعدَ ربُّكمْ حقاً. قالوا نعم. فأذَّنَ مؤذِّنٌ بينَهم أنْ لَعْنَةُ اللهِ على الظالمين * الذين يَصدُّونَ عنْ سبيلِ اللهِ ويَبغُونهَا عِوَجاً وهُمْ بالآخرةِ كافرون * وبينهُما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفونُ كُلاً بسيمَاهُم﴾ الأعراف/ ٤٤-٤٦.

* ﴿ إذ عُرِضَ عليه بالعَشيِّ الصَّافناتُ الجيَادُ * فقال إنِّي أحببتُ حبَّ الخيرِ عنْ ذكرِ ربِّي حتى توارتْ بالحجاب ﴾ ص/ ٣١-٣٢.

* ﴿ وقالُوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ ممَّا تَدعونَا إليه وفي آذانِنا وقرٌ ومنْ بينِنا وبينِك حجابٌ فاعملْ إنَّنا عاملون ﴾ فصلت/ ٥.

* ﴿ وما كانَ لبشرٍ أنْ يُكلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أومنْ وراءِ حجاب ﴾ الشورى/ ٥١.

* ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ وبينَ الذينَ لايؤمنونَ بالآخرةِ حجاباً مستوراً ﴾ الإسراء/ ٤٥.

* ﴿ واذكرْ في الكتابِ مريمَ إذِ انتبَذتْ منْ أهلِها مكاناً شَرْقياً * فاتَّخذَتْ منْ دُونِهمْ حجاباً فأرسلنَا إليها روحَنا فتمثَّل لها بشراً سويَّاً ﴾ مريم/ ١٦-١٧.

* ﴿ وإذا سَألتموهنَّ متاعاً فاسْألوهنَّ منْ وراءِ حجابٍ ذلكُمْ أطهرُ لقُلوبكُمْ وقُلوبهنَّ ﴾ الأحزاب/ ٥٣.

وإنَّ المقصود بالحجاب في قوله تعالى: ﴿ فاسألوهنَّ منْ وراءِ حجابٍ ﴾ هو السِّتر الذي يكون في البيت، ويُرخى ليفصلَ بين مجلس الرجال ومجلس النساء.

فـ ﴿ ذلكمْ أطهرُ لقلوبكُم وقلوبِهنَّ ﴾، أمَّا طهارةُ القلوب بالنسبة للرجال، فبسبب أنهنَّ لايَرَون أمهاتِ المؤمنين، وأما بالنسبة لأمهات المؤمنين فبسبب أنهنَّ لايَرَيْن الرجال.

أما اللباس الذي تلبسه النساء، حتى مع تغطية الوجه، فيسمح لهن برؤية الرجال.

إذن فمصطلح الحجاب كان خاصاً بأمهات المؤمنين، وهو أدبٌ خاص بنساء

النبي ﷺ في تعاملهن مع الرجال داخل البيوت. وذلك تمييزاً لهن عن بقية نساء المؤمنين، وتكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، وقد جاء هذا الأدب متمّماً لأدب آخر، وهو القرار في البيوت، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ وقَرْنَ في بيوتكنَّ ﴾ الأحزاب/ ٣٣.

والأدبان كلاهما فيه صيانةٌ متميزة لنساء النبيِّ ﷺ، تمهيداً لتَبَتُّلِهِنَّ، وحظر النكاح عليهنَّ بعد وفاة الرسول ﷺ تحقيقاً لقوله تعالى في خاتمة آية الحجاب: ﴿ وما كانَ لكمْ أنْ تُؤذُوا رسولَ اللهِ ولا أنْ تنكحُوا أزواجَه مِنْ بعْدِه أبداً إنَّ ذلكُمْ كانَ عندَ اللهِ عظيماً ﴾ الأحزاب/ ٥٣.

وتأتي السنة الشريفة لتعطيَ مصطلحَ «الحجاب» ذات المعنى الواردِ في القرآن الكريم:

* عن عمرَ رَضِوَاللهُعَنهُ قال:

قلت: يا رسول الله، يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ، فلو أمرتَ أمَّهات المؤمنين بالحجاب. فأنزلَ اللهُ آية الحجاب [١٦].

* عن أنس بن مالك رَضِوَاللهُعَنهُ قال:

كنتُ أعلمَ الناسِ بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما أُنْزل في مُبْتَنى رسولِ الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبيُّ ﷺ بها عروساً، فدعا القومَ فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، فبقي رهْطٌ منهم عند النبي ﷺ وأطالوا المكث. فقام النبيُّ ﷺ فخرجَ وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشى النبيُّ ﷺ

---

(١٦) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب /١١/، حديث /٤٢١٣/. ج٤/١٦٢٩.

ومشيتُ، حتى إذا جاءَ حُجرةَ عائشةَ، ثم ظنَّ أنهم خرجوا، فرجعَ ورجعتُ معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجعَ النبي ﷺ ورجعتُ معه، حتى إذا بلغ عتبةَ حجرة عائشة، ثم ظنَّ أنهم خرجوا، فرجعَ ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضربَ النبيُّ ﷺ بيني وبينه بالستر، وأُنزل الحجابُ [١٧].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت:

جاء عمِّي من الرَّضاعة فاستأذنَ عليَّ، فأبَيتُ أن آذنَ له حتى أسألَ رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن ضُرب علينا الحجابُ.

وفي روايةٍ قال: أتحتجبين منِّي وأنا عمُّك ؟ وفي روايةٍ: استأذنَ عليها فحجبَتْه، فأخبرتْ رسولَ الله ﷺ فقال لها: لاتحتجبي منه [١٨].

* عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال:

«... فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ الظهر سبقناه «أي عبد المطلب والفضل بن العباس» إلى الحجرة، فقُمنا عندها، حتى جاء فأخذ بآذاننا ...، فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلِّمه ...، وجعلتْ زينبُ رضي اللهُ عنها تَلْمَعُ إلينا من وراء الحجاب أنْ لا تكلِّماه» [١٩].

* عن أنس رضي الله عنه قال:

أقام النبيُّ ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاثاً، يُبنى عليه بصفيَّة بنت حُيَي. فقال

---

(١٧) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب /٦٧/، حديث /٤٨٧١/. ج٥/١٩٨٢.
مسلم: كتاب النكاح /١٦/، باب /١٥/، حديث /١٤٢٨/. ج٢/١٠٥٠.

(١٨) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب /١١٦/، حديث /٤٩٤١/. ج٥/٢٠٠٧.
مسلم: كتاب الرضاع، باب /١/، حديث /١٤٤٤/. ج٢/١٠٧٠.

(١٩) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب /٥١/، حديث /١٠٧٢/. ج٢/٧٥٢.

المسلمون: إحدى أمَّهات المؤمنين، أومما ملكتْ يمينُه ؟

فقالوا : إنْ حجَبها فهي مِنْ أمهات المؤمنين، وإنْ لم يحجبها فهي مما ملكتْ يمينه.

فلما ارتحل وطَّأ لها خلفه، ومدَّ الحجاب بينها وبين الناس [٢٠].

هذه النصوص من السنة، وهناك الكثير غيرها يمكن الاطلاع عليها في «اختصاص لفظ الحجاب في صحيحي البخاري ومسلم بأمهات المؤمنين».

أما عن لباس المرأة المسلمة، وهو ما أشرتُ إليه سابقاً بتعبير «لباس التقوى»، فقد ورد في القرآن الكريم بالآيات التالية، كما أشرت سابقاً أيضاً:

* ﴿ يا بَني آدمَ قَدْ أنزلنَا عليكمْ لباساً يُواري سَوءاتِكمْ وريشاً ولباسُ التَّقوى ذلكَ خيرٌ ﴾ الأعراف/ ٢٦.

* ﴿ يا بَني آدمَ لايَفتننَّكمُ الشيطانُ كمَا أخرجَ أبويكُمْ منَ الجنَّةِ ينْزِعُ عَنهما لباسَهما ليُريَهما سَوْءاتِهما ﴾ الأعراف/ ٢٧.

* ﴿ وليَضْربنَ بخُمُرهنَّ على جُيوبهنَّ ﴾ النور/ ٣١.

* ﴿ ولايُبدينَ زينتَهنَّ إلا ما ظَهرَ منها ﴾ النور/ ٣١.

* ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزْواجكَ وبناتكَ ونساءِ المؤمنينَ يُدنينَ عليهنَّ مِنْ جلابيبهنَّ ﴾ الأحزاب/ ٥٩.

* ﴿ والقواعدُ منَ النِّساءِ اللاتي لايَرجُونَ نكاحاً فليسَ عليهنَّ جُناحٌ أنْ يَضعنَ ثيابهنَّ غيرَ مُتبرِّجاتٍ بزينةٍ وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لُهنَّ ﴾ النور/ ٦٠.

---

(٢٠) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب /٣٦/، حديث /٣٩٧٦/. ج٤/١٥٤٣.

أمَّا ما ورد في السُّنَّة بشأن لباس المرأة المسلمة:

* «ميمونة كانت تصلي في الدِّرْع والخِمار ليس عليها إزار» [٢١].

* «امرأةٌ استفتتْ عُروةَ فقالتْ: إنَّ المنطقَ يَشُقُّ عليَّ، أفأصلي في درع وخمار. فقال: نعم، إنْ كان الدِّرع سابغاً» [٢٢].

* «عائشة زوجُ النبيِّ ﷺ كانت تصلي في الدِّرع والخمار» [٢٣].

* «كنَّ نساء المؤمنين يشهدنَ مع رسولِ الله ﷺ صلاةَ الفجر متلفِّعاتٍ بمُروطِهنَّ» [٢٤].

إنَّ تصحيحَ التعبير الوارد خطأ عن تسميةِ لباس المرأة المسلمة بالحجاب لايعني تجاهلَ اللباس، وإنما التمييزَ بين الحجاب بمعناه اللغوي، وبين اللباس الواردِ ذكرُه في القرآن والسنة الشريفة، كما ذكرتُ آنفاً.

لذا سأستخدمُ فيما يلي تعبيرَ «لباس التقوى» عوضاً عن «الحجاب» [٢٥].

---

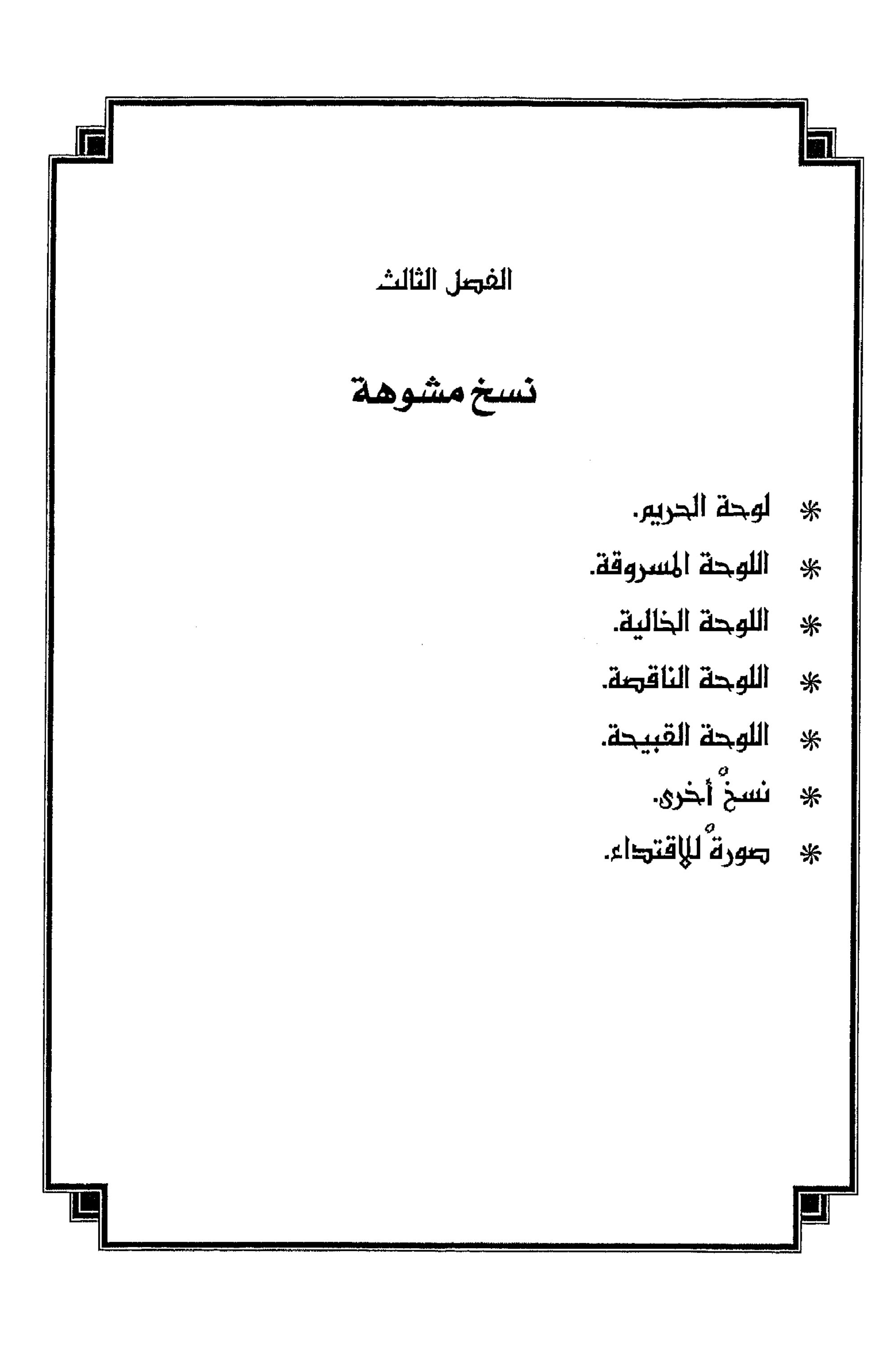
(٢١) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب صلاة الجماعة، باب /١٠/، حديث /٣٨/. ص/١٣١.

(٢٢) أخرجه مالك في الموطأ: المكان نفسه، حديث /٣٩/.

(٢٣) أخرجه مالك في الموطأ: المكان نفسه، حديث /٣٦/.

(٢٤) حديثٌ سبق تخريجه.

(٢٥) لم أشأ أنْ أورد هذا الفصل في بداية الكتاب. إذ أردتُ أن أنقدَ لوحةَ «الحجاب»، كما اعتاد الناس تسميته، وبعد أن استتبَّت مراحل النقد، وتمَّ شرحَ حيثيات الحكم، أوردتُ التصحيحَ اللغوي فيما يلي من صفحات الكتاب.



الفصل الثالث

نسخ مشوهة

* لوحة الحريم.
* اللوحة المسروقة.
* اللوحة الخالية.
* اللوحة الناقصة.
* اللوحة القبيحة.
* نسخٌ أخرى.
* صورةٌ للاقتداء.

إنَّ القيمةَ الرفيعةَ للوحةِ «لباس التقوى» لن تنخفضَ، مهما كَثُرت النسخُ السيئةُ الطباعةِ، المشوَّهةُ، التي يُتاجرُ بها باعةُ الأرصفة.

... وتأتي هذه اللمساتُ النهائيَّةُ لتُضْفيَ مَسْحَةَ النُّبْلِ والرِّقَّةِ على قَسَمَاتِ اللوحةِ، فيبدُو لنا الإنسانُ المسلمُ متميزاً، تنفتحُ له قلوبُ مَنْ حولَه، وتهفُو النفوسُ إلى صُحبته، والتعرُّفِ إليه، والاقتداءِ به.

لوحةُ الحَريْم

وإنَّ «**لوحة الحريم**» نسخةٌ مشوَّهةٌ من تلك النسخ، وأعني بها المبالغةَ في الحجاب، بحيث يتجاوزُ حدَّ الحشمة المفروضة، وكونَه «لباس التقوى»، إلى حجبِ المرأة عن المجتمع، وإقصائِها عن مجالات العلم والعمل والتعليم.

إنَّ هذا الفهم المتطرِّفَ قد يُودي بالمرأة إلى مصيرٍ مظلم، كالتسوُّل مثلاً، أوالانحراف في حال غياب الزوج أوالابن أوالأخ... أي في حالِ فقدان المعيل.

الحريمُ لا يسمحُ بتنمية شخصيَّة المرأة.

التي كانت تشارك رسول الله ﷺ في الجهاد.

لقد عملَ الإسلامُ على تنميةِ شخصيةِ المرأةِ، فكانت تُكثر منَ الخروجِ مع صواحبَ لها إلى الجهاد في سبيل الله.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُليم ونسوةٍ من الأنصار معه إذا غزا، فيسقينَ الماءَ ويُداوين الجرحى [1].

* وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلُفُهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام [2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسِّيَر، باب /٤٧/، حديث /١٨١٠/. ج٣/١٤٤٣. وأخرجه الترمذي، وأبو داود.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب /٤٨/، حديث /١٨١٢/. ج٣/١٤٤٧.

وتُسهم في الحركة العلميّة.

فقد كانت النساء يُحَاوِرْنَ الرجالَ في أمور العلم، كما كان الرجال يطلبون العلم من أمَّهات المؤمنين.

* عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ [٣].

وتعينُ على عمل المعروف.

كما أنَّ هنالك بعضَ المشاهد التي توضِّح كيف كان لقاءُ النساء بالرجال يُعين على عمل المعروف. فكانت «أم شريك» تفتح بيتها للضِّيفان، فينزل عليها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ، وكأنه منتدىً للخير.

* عن فاطمةَ بنت قيس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **(انتقلي إلى أمِّ شريك)**. وأمُّ شريك أمرأةٌ غنيةٌ من الأنصار، عظيمةُ النفقة في سبيل الله. ينزل عليها الضِّيفان. فقلت: سأفعل. فقال: **(لاتفعلي، إنَّ أمَّ شريك امرأةٌ كثيرةُ الضِّيفان)**. وفي رواية: **(يأتيها المهاجرون الأوَّلون)** [٤].

وتنهى عن المنكر، كائناً من كانَ فاعلُه.

وكانت المرأةُ تشارك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(٣) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب /١/، حديث /٤٧٧٦/. ج٥/١٩٤٩.
مسلم: كتاب النكاح، باب /١/، حديث /١٤٠١/. ج٢/١٠٢٠.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب /٢٤/، حديث /٢٩٤٢/، ج٤/٢٢٦١.

قال تعالى: ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينْهَون عن المنكر ويُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورسولَه أولئكَ سَيرحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ التوبة/ ٧١.

ويحكي التاريخُ قصَّةَ أمِّ الدرداء، امرأةِ الصحابي الجليل أبي الدرداء، حين تصدَّتْ للخليفة عبد الملك بن مروان، فنهَتْه عن منكرٍ صدرَ منه.

* عن زيد بن أسلمَ أنَّ عبدَ الملك بن مروان بعثَ إلى أمِّ الدرداء بأنجاد [٥] من عنده، فلما أنْ كان ذات ليلةٍ قام عبدُ الملك من الليل فدعا خادمَه، فكأنَّه أبطأ عليه، فلعنه، فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتُك الليلة لعنتَ خادمك حين دعوته. وإنِّي سمعتُ أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: (لايكون اللَّعَّانون شفعاءَ ولاشهداءَ يوم القيامة) [٦].

ولقد بلغتْ مكانةُ المرأة المسلمة ومشاركتها في صيانة المجتمع وتسديد مسارِه مبلغاً عظيماً، حيث كانَ لها من الجرأة والشجاعة ما جعلها تنكر على الحاكم ظلمَه.

* عن أبي نوفل قال: دخل الحجَّاجُ بن يوسف الثقفي، بعد مقتل عبد الله ابن الزبير، على أسماءَ بنتِ أبي بكر فقال: كيف رأيتني صنعتُ بعدوِّ الله ؟ قالت: رأيتك أفسدتَ عليه حياته، وأفسدَ عليك آخرتك. أما إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً [٧] ، فأمَّا الكذَّابُ فرأيناه، وأمَّا المبير فما

---

(٥) أنجاد: متاع البيت الذي يُزيِّنه، مِنْ فرش ونمارق وستور.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب /٢٤/، حديث /٢٥٩٨/. ج٤/٢٠٠٦.

(٧) المبير: المهلك. وتشير إلى كثرة قتْله.

إخالك إلا إيَّاه. قال: فقامَ عنها ولم يُراجعها [٨].

فالإسلامُ لم يُبعد المرأة عن ميدان المشاركة في مختلف مجالات الحياة وأنشطتها، بل كانت تنطلق في حياتها على نورٍ من هدى الله تعالى، الذي أنزله في كتابه وسنةِ رسوله ﷺ.

الغايةُ من تعليم المرأة.

أمَّا تعليمُ المرأة فإنَّه يحقِّق أمرين أساسيين:

أولهما: تمكينُها مِنْ رعاية البيت والأسرة أكملَ رعاية، لتكونَ جديرةً بحمل مسؤوليتها عند الزواج، تحقيقاً لقول الرسول ﷺ: **(المرأةُ راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولدِه وهي مسؤولةٌ عنهم)** [٩].

وثانيهما: تمكينُها من إتقان مهنةٍ مناسبة، تمارسها عند الحاجة، سواءً أكانت حاجةً فردية، أم أسريَّة، أم اجتماعية.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأةٌ معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرةٍ واحدة، فأعطيتُها لها، فقسمَتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجَتْ. فدخل النبيُّ ﷺ، فحدَّثتُه فقال: **(مَن وَلِيَ مِنْ هذه البنات شيئاً فأحسنَ إليهنَّ كنَّ له سَتراً منَ النار)** [١٠].

وفي هذا الحديث توجيهٌ عميقٌ إلى أنَّ مِنْ دواعي الشرف والإحسان لهذه

---

(٨) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب /٥٨/، حديث /٢٥٤٥/. ج٤/١٩٧١.

(٩) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب /١/، حديث /٦٧١٩/. ج٦/٢٦١١.

(١٠) سبق تخريجه.

المرأة لو أنها قدرتْ على العمل وإطعام نفسها وابنتيها مِنْ كسبٍ حلال طيب، بدلاً من سؤال الناس والأكل منَ الصدقة، وهي كما قال الرسول ﷺ: (**إنما هي أوساخ الناس**) [11].

امرأةٌ تجني نخلها في العدّة.

لقد نهى الرسول ﷺ عن حجب المرأة وإقصائها عن المجتمع في حالة اضطرارها للعمل، حتى ولو كانت في فترة العدة.

* عن صابر بن عبد الله قال: طُلقَتْ خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها - في فترة العدة - فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبيَّ ﷺ فقال: (**بلى. فَجُدِّي نخلَك، فإنَّك عسى أنْ تصَدَّقي أوتفعلي معروفاً**) [12].

نقابٌ معنويٌ كثيفٌ.

وإذا كانت الآياتُ السابقة «في سورتي: النور/٣١، والأحزاب/٥٩»، والأحاديثُ الشريفة، قد رسمتْ خطوطاً عريضةً لملابس المرأة المسلمة فلم يظهر منها إلا الوجه والكفين، فإن الآيات التالية هي خيوطٌ متينة تنسج نقاباً كثيفاً، بل أكثف مِنْ أي نقاب آخر ماديٍّ تُسدله المرأة على وجهها، فحدَّدت الآياتُ الأولى الزيَّ المحتشم الذي لايَشفُّ ولايصف، ثم أتتْ هذه الآيات الأخيرةُ لتحدِّد:

---

(١١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب /٥١/، حديث /١٠٧٢/. ج/٢/٧٥٢.

(١٢) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب /٧/، حديث /١٤٨٣/. ج/٢/١١٢١.

أً) الجِديَّةَ في التخاطب:

﴿ فلاتخضعن بالقول فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ ﴾ الأحزاب/ ٣٢.

٢ً) الوقارَ في الحركة:

﴿ ولا يَضرِبْنَ بأرجلهنَّ ليُعلمَ ما يُخفينَ مِنْ زينتهنَّ ﴾ النور/ ٣١.

٣ً) والنهيَ عن التبرُّج والتجمُّل بمساحيق الزينة:

﴿ ولاتبَرَّجنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى ﴾ الأحزاب/ ٣٣.

٤ً) والنهيَ عن استعمال الطيب، وفي عصرنا الحاضر الـ Perfum:

فعن زينب، امرأة عبد الله، قالت: قال رسول الله ﷺ: (**إذا شهدتْ إحداكنَّ المسجدَ فلا تمسَّ طيباً**)[١٣].

٥ً) وفَرْضَ الرزانةِ في السلوك في المجتمع، وفي السوق... الخ.:

﴿ وقلْ للمؤمنات يَغضضنَ مِنْ أبصارهنَّ ﴾ النور/ ٣١.

وبهذا «النِّقاب» تدخل المرأة ميدانَ المشاركة مع الرجل بشكل فعَّال في سائر القضايا الإنسانية والاجتماعية والعلمية، دخولَ الواثق، وتستطيع العملَ وإعالةَ أسرتها في حال فقدان المعيل ـ كما قلت ـ فلا تهبط، بهذه المشاركة بينها وبين الرجل، إلى مستوى فتاة المتعة وأداة الترفيه عن الرجل، ولا تغدو في عداد الحريم.

إنَّ ضوابط الحشمة:

التي هي ترجمةُ «لباس التقوى» الإسلامي أولاً.

---

(١٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب /٣٠/، حديث /٤٤٣/. ج١/٣٢٨.

وصيانة السمع والبصر والحركة ثانياً.

هي طريق يؤدي إلى عدم تعطيل طاقة المرأة من جهة، والمحافظةِ على طهارة البيت وطهارة المجتمع من جهة أخرى.

اللوحةُ المسروقة

كانت الجاهليةُ، وكانت للمرأة صورةٌ وحيدة هي: المرأة الموروثة، المؤودَة المهانَة.

ولما جاء الإسلام حاملاً في جعبته شعارَ المساواة، قدَّم صوراً مشرقة للمرأة: الأمّ المقدَّسة، الأخت المؤنسة، الزوجة المكرَّمة، الابنة الغالية...

كما أبرزَ وثائقَ حَفظت للمرأة حقوقها، وكما سبق أن قلت: هي مجموعة أُخذت من مجموعة أخرى شاملة، رَسمتْ الإنسان، الرجل والمرأة، في التصوُّر الإسلامي.

فلوحة الحجاب، لباس التقوى، ما هي إلا قطعة Puzzle في لوح كبير للمرأة، وإنَّ قِوامة الرجلِ على المرأة تمنحه حقَّ السلطة، وتفرض عليه في ذات الوقت، واجبَ العطاء والإنفاق على زوجته، فيغنيها عن السعي لكسب العيش.

قال تعالى: ﴿ **الرجالُ قوَّامون على النِّساء بما فضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعض، وبمَا أنفقُوا مِنْ أموالهم** ﴾ النساء/ ٣٤.

الرجلُ الذي ينسى حقَّ المرأة ويطالبُ بحقوقه
سارقٌ للوحة لباس التقوى.

في بعض الأحيان يُسيء بعضُ الرجال استعمالَ هذه السُّلطة، فيُحجم عن أداء ما يتوجب عليه من واجبات مادية ومعنوية، ولكنه يطالب بحقوقه وبما

يملك من سُلطة القِوامة، فيسعى للحصول على لوحة «لباس التقوى» دون غيرها، ويُهمل ما يجاورها من حقوق للمرأة: مالية، اجتماعية، حرية شخصية: اختيار الزوج، التصرُّف بالأموال، المبايعة والمشاركة السياسية في الدولة...

وكما يطيب للرجل أحياناً اقتناءُ قطع الأثاث في منزله، قديطيب له الاحتفاظ بلوحةِ لباس التقوى، إرضاءً لعشيرته مثلاً، أوجيرانه، أومجتمعِه،... أوإرضاءً لنزعةِ الملكيةِ في ذاته، دونَ إخضاعٍ منه لهذه الذات لفروض الشريعة الإسلامية، فلا يلتزمُ بالصلاة، أو لايؤدي الزكاة، ولايغضُّ البصر عن نساء الغير، وقد يرتكب بعضاً أوكثيراً من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم ينثني إلى لوحة «لباس التقوى»، فيقف أمامها فخوراً بأنه رجل متدين، سعيداً، منتفخ الأوداج، حاشراً معلوماته الإسلامية بكثافةِ حجاب المرأة التي يملك عليها حقَّ القوامة.

إنَّ انتزاع الرجل لهذه القطعة الـ Puzzle، إنّ هو إلا سرقةٌ تتجمُ عنها نسخةٌ أخرى مشوهةٌ أمام الآخرين، الذين لم يشاهدوا من لوحة لباس التقوى إلا هذه النسخة التعيسة.

قال تعالى: **﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمنَاهُ طائرَه في عُنُقه، ونُخرجُ له يومَ القيامة كتاباً يَلقاه منشوراً * اقرأ كتابَك كفَى بنفسك اليومَ عليك حسيباً * مَنِ اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه ومَنْ ضلَّ فإنَّما يَضلُّ عليها ولاتَزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى ﴾** الإسراء/١٣-١٥.

فالسَّرقة وِزرٌ، وتشويهُ اللوحة وزر آخر، واتِّهامُ اللوحةِ الأصل وزرٌ ثالث.

وعندما تُطلق المرأة صيحةَ التمرُّد أمامَ ممارسات السُّلطة المجحفة، تختلط لديها أوراقُ النسخ المشوَّهة والصورة الأصلية، وتضيع أمامها ملامحُ الحقِّ والباطل، والخطأ والصواب، فتقعُ في مهاوي الوزر الثالث.

اللوحةُ الخالية

رأَيْنَا أنَّ الرجلَ الذي لايلتزم بالفرائض الإسلامية لايملك مقوِّماتٍ شرعية يشتري بها اللوحة، فيسرقها ... وتعلن المرأة أحياناً العصيان، نتيجةً لحالة التناقض في سلوك الرجل، فتضيع عليها الرؤيةُ السليمة.

أما عندما يسلك الرجل سُبُل الاستقامة فإنه يدَّخر رصيداً من المقوِّمات التي تُخوِّله شراءَ اللوحة، فيقدِّمها هديةً لها ... وتتقبَّلها المرأةُ دون تمردٍ أوتردد.

وهكذا فالفرقُ شاسع بين الطريقتين:

فريقٌ أولُ قدَّمَ لأهله سقفاً دون أساس أوأعمدة.

وفريق ثانٍ قدم كَنفاً آمناً، وأساساً متيناً يستند إلى دعاماتٍ عميقة الرسوخ.

قال تعالى:

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً وَقُودها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لايَعصونَ اللّهَ ما أمرَهمْ ويفعلونَ ما يُؤمرون ﴾ التحريم/٦.

وهكذا فإنَّ تَبِعةَ المؤمن في نفسه، وفي أهله، تبعةٌ ثقيلة، والمسؤوليةُ الملقاة على كاهله كبيرةٌ، وعليه أنْ يدفعَ عن نفسه وأهله مصيراً رهيباً، الناس فيها كالحجارة، سواءٌ في مهانة الحجارة، أوفي قذفها دون عناية أواعتبار.

وهكذا يلوح أمامنا فريق ثالث:

فريقٌ لايملك كنفاً آمناً، ولاحصناً منيعاً، لاوقاية ولاحماية، حتى هذا السقف الطائر في الخواء، لايقدر على الإتيان به. إنه لايملك سوى سرابٍ قصير،

سرابِ الدنيا الزائل.

قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لاتتَّخذوا آباءَكم وإخوانَكم أولياءَ إنِ استحبُّوا الكفرَ على الإيمان ومَنْ يتولَّهم منكم فأولئك همُ الظالمون * قُلْ إنْ كانَ آباؤكمْ وأبناؤكمْ وإخوانكمْ وأزواجُكمْ وعشيرتكمْ وأموالٌ اقترفتُموها وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ومساكنُ ترضَونَها أحبَّ إليكم منَ اللهِ ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمره واللهُ لايهدي القومَ الفاسقين ﴾ التوبة/ ٢٣-٢٤.

عندما يسرقُ الرجلُ حقَّ القوامة.

عندما يستخدم الرجل سُلطته فيمنعُ المرأةَ، أختَه، زوجتَه، ابنتَه، من ارتداءِ لباس التقوى، عندما يمارس مثل هذه السُّلطة، فإنه يسرق من الشريعة الإسلامية حقَّ القوامة، دون أن يملك الحق الشرعي في ذلك، إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وتحصل هذه الحالة لأسباب كثيرة، لا سبيل لحصرها، منها عدم قناعته أصلاً بلباس التقوى، أوإشفاقه على زوجه أن تخسر شكلَها الحضاري وأناقتَها المستوردة.

أو أنه يخجل أنْ يعلن هوية امرأته المسلمة في المجتمعات الغربية ... الخ.

فما موقفُ المرأة في هذه الحال ؟

إنَّ المرأة التي تستبدل وشائجَ الدمِ والقرابةِ والزواج بوشائج القُرب من الله ورسوله وطاعتهما، عليها مجابهةُ واقع التربُّص ... والتهديد !

والمرأةُ التي اطمأنَّتْ إلى سراب المسكن الطيب، ومظاهر الحبِّ، وروابط

الدم والقربى، عليها أن تستعدَّ ليوم تقفُ فيه وحيدة في ساحة مقفرة.

قال تعالى: ﴿ **يومَ يَفرُّ المرءُ مِنْ أخيه * وأمِّه وأبيه وصاحبتِه وبنيه * لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه** ﴾ عبس/ ٣٤-٣٧.

وبين واقعِ التهديد وواقعِ التيهِ المُقفر، يَكمنُ شعورٌ بالذعر المستطار، فالتهديد، عامةً، يُوقع الاضطراب والرعبَ في النفوس، والوحدة المطبقة من القرابة، والعواطفُ الحميمة، تشيع في النفس برودةً ثقيلة، أمَّا اجتماعهما - التهديد والوحدة - فهو الهول... وأيُّ هول!

قال تعالى: ﴿ **إذْ تَبرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذين اتَّبَعُوا ورَأَوا العَذابَ وتقطّعتْ بِهِمُ الأسبابُ** ﴾ البقرة/ ١٦٦.

والسِّياق القرآنيُّ يرسم هنا مشهداً مؤسفاً مؤثِّراً. فلو أنَّ المرأةَ، التي كانت تخضع للرجل فتطيع رغباته وتتَّبع أهواءَه، مدَّت بصرها إلى يوم الوقوف بين يدي الله، فسوف ترى وقفةَ الذلِّ وهو يُشيحُ عنها، ويُعرض بوجهه متجاهلاً إياها، بل إنَّه سيُنكر كلَّ وشيجةٍ تربطه بها، فكل واحدٍ مشغولٌ بنفسه، تابعاً كان أم متبوعاً.

إنها لافتةُ إنذار وتحذير قبل أن يفوت الوقت، فلاينفع الندم ولا تُجدي الحسرة على ما فات.

والمرأة التي تتخلَّى عن لوحة لباس التقوى إرضاءً للرَّجل تحت شعار «لاحيلة لي في الأمر»، إنَّما هي تسلكُ سبيلَ المراوغة، وهي لن تستطيع الفرار من واقع التَّربص الذي يسدُّ جميع السبل، ويُغلق كلَّ المسالك.

اللوحةُ الناقصة

وكما يحلو لبعض العابثين من الرجال سرقةُ اللوحة، أوتفريغُها والاحتفاظ بإطار أجوف لصورةٍ مزَّقها كثير من الناس فبقيت لوحةً خالية؛ فقد يحلو لبعض النساء العبثُ بأسلوبٍ آخر.

تنشأ المرأة أحياناً في بيئة تعدُّ لباس التقوى أمراً مفروضاً عليها تطبيقه، ولامناص من ذلك، فلا تقيم وزناً إلى أنه شعارٌ عظيم، وحكمةٌ إلهية، ومنهجٌ تربويٌّ قيِّم.

لباس التقوى حصلت عليه بعضُهنَّ عن طريق المصادفة المحضة، أوبأسلوب الدفع الذاتي عبر السنين، تلقَّته المرأة إرثاً من جدتها أوأمها أوبيئتها... وتسهو هذه المرأة الوارثة للحجاب عن قضيةٍ مفادها «الإنفاق» كي تقتني المجموعة الكاملة لصور المرأة المسلمة، التي تشكِّل جزءاً من صورة الإنسان المؤمن، الذي رسمته هذه الآية، قال تعالى:

﴿ قدْ أفْلَحَ المؤمنونَ * الَّذين هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ * والَّذينَ هُمْ عن اللَّغْوِ مُعرضونَ * والَّذينَ هُمْ للزَّكاةِ فاعِلونَ * والَّذينَ هُمْ لفُرُوجِهِمْ حافظونَ * إلاَّ على أزواجِهِمْ أوْما مَلَكَتْ أيمانُهمْ فإنَّهم غيرُ مَلومينَ * فَمَنِ ابتغَى وراءَ ذلكَ فأولئكَ هُمُ العَادُونَ * والَّذين هُمْ لأماناتِهِمْ وعهدِهِمْ راعون * والَّذين هُمْ على صلواتِهِم يحافظونَ * أولئكَ هُمُ الوارثونَ * الَّذينَ يرثونَ الفردوسَ هُمْ فيها خالدونَ ﴾ المؤمنون/ ١-١١.

هذه هي المجموعةُ الكاملة التي يشكِّل لباسُ التقوى جزءاً منها، وقمةُ التقوى الصلاة.

إنَّ عنصر التشويه في هذه اللوحة هي في كونها ناقصةً، مبتورةً، أتت بجزءٍ وضاعت منها أجزاء، أخذت منها المرأة عنصر الشكل فقط، فهو موروث، دون ثمن، وأغفلت الباقي، فللحصول عليه تكاليف وثمنٌ، إذ عليها التَّخلي عن أمورٍ تهفو إليها نفسُها، كاللغو مثلاً.

واللغو هو: لغوُ القولِ، ولغوُ العملِ، ولغوُ المشاعرِ.

وهي آفاتٌ اجتماعية مستفحِلة، يصعب على النِّساء التَّخلِّي عنها، لأنَّ التَّخلِّي يعني الإنفاق.

قال تعالى:

﴿ لنْ تَنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحبونَ ﴾ آل عمران / ٩٢.

لغوُ القول:

فأمَّا لغو القول: فهو النَّميمة، والغيبة، والرِّياء، والنِّفاق، والحسد، والتَّكبُّر، والتَّباهي، والكذب، والتَّنابز بالألقاب، والغمز، والسُّخرية.

قال تعالى:

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا لايَسْخَرْ قومٌ مِنْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهُمْ، ولانساءٌ مِنْ نساءٍ عسى أنْ يكنَّ خيراً منهُنَّ، ولاتَلْمِزوا أنفسَكُمْ ولاتنابزوا بالألقابِ بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ، ومَنْ لمْ يَتُبْ فأولئكَ هُمُ الظَّالمونَ * يا أيُّها الذينَ آمنوا اجتَنِبوا كثيراً مِنَ الظَّنِ، إنَّ بعضَ الظَّنِ إثمٌ، ولاتَجَسَّسوا، ولايَغْتَبْ بعضُكُمْ

بعضاً. أَيُحِبُّ أَحدُكُمْ أَنْ يأكُلَ لحمَ أخيه ميْتاً فكَرِهْتُموهُ. واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ توَّابٌ رحيمٌ﴾ الحجرات/ ١١-١٢.

هذه الصِّيَغ في التَّعبير عن واقعةِ أكل المرء لحمَ أخيه يمكن أن تأخذ صيغاً أخرى أكثر قبولاً وشرعية عند بعضهنَّ.

فيمكن للمرء أحياناً أن يأكلَ لحم أخيه بعد أن يُضيف إليه شيئاً من التوابل والمنكهات العطرية.

ويمكن أن ترتدي النميمةُ أحياناً قناعَ الوداد، والغيرة على المصالح، وتُقرِّب النمَّامين فيما بينهم،.

ويُسدِلُ الحسد نقاب التَّظلُّم بمقولة: أنا أفضل منها، كيف لها هذا وليس لي مثله ؟

ويتجمّل التَّكبُّر تحت مساحيق زينةٍ اسمها «عزة النفس».

ويُطلى الكذب بطلاءٍ سميك ناصع اسمه «الكذبة البيضاء».

ويختبىء التباهي وراء قوله تعالى: ﴿وأمَّا بنعمةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/ ١١.

ويستريح النِّفاق تحت ظلال المرونة في التعامل، وضرورة مواكبة الأجواء المفروضة.

ويستعير التَّجسُّسُ «طاقيةَ الإخفاء» من باب «النباهة والحذر».

ويلبس الاستهزاءُ والغمزُ رداءَ المهرِّج، حتى يشيع في الجلسات والاجتماعات جوُّ الفكاهة والتسلية.

وترسم الغِيبة لمساتٍ من البراءة على قسمات المغتاب وهو يقول: «لا أدري. هكذا قيل!».

يقول الرَّسول ﷺ: (**لاتكونوا إمَّعَة**) [١٤].

ويقول: (**إنَّ العبدَ لَيَتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّنُ فيها، يزلُّ بها إلى النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب**) [١٥].

ويقول أيضاً: (**إنَّ الرَّجل ليتكلّم بالكلمة لايرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً**) [١٦].

لغوُ العمل:

من أقواله ﷺ: (**اغتنمْ خمساً قبلَ خمس:**

- **حياتَك قبلَ موتِك،**
- **وصحتَك قبلَ سَقَمك،**
- **وفراغَك قبلَ شُغلك،**
- **وشبابَك قبلَ هَرمك،**
- **وغناك قبلَ فَقْرك**) [١٧].

إنَّ بين الإنسان والوقت حرباً مستمرة لاهوادة فيها. لايُكتب فيها الظَّفر للإنسان إلاَّ باغتنامه الخَمس الأولى قبل الخَمس الثانية. وسيُسجَّل في عداد

---

(١٤) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب /٦٣/، حديث /٢٠٠٧/. ج٤/٣٦٤.

(١٥) متفق عليه. البخاري: كتاب الرقاق، باب /٢٣/، حديث /٦١١٢/. ج٥/٢٣٧٧.
مسلم: كتاب الزهد ، باب /٦/، حديث /٢٩٨٨/. ج٤/٢٢٩٠.

(١٦) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب /١٠/، حديث /٢٣١٤/. ج٤/٥٥٧.
وابن ماجه: كتاب الفتن، باب /١٢/، حديث /٣٩٧٠/. ج٢/١٣١٣.

(١٧) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ج٤/٣٠٦.

الخاسرين إن ضاعت الأولى دون الأخيرة.

هذا الصراع الذي لاهوادة فيه، قد يغفل عنه الكثيرون، فيعلنون خسارتهم أمام الوقت، ويرفعون الراية البيضاء باستسلام، إذ أنهم في حالة ملل وفراغ، قد يُشهرون أمام الوقت أسلحةً واهية بلاستيكيةً، ذات قذائف مطاطية، ومدافعَ مائية، إنهم يصرعون الوقت باللغو، لغو العمل:

- التسكّع في الأسواق،
- مشاهدة برامج التلفاز التافهة،
- قراءة المجلات الرخيصة المستوى،
- مكالمات هاتفية سرمدية.

وتأتي الآية الكريمة لتحسم المعركة، وتعلن انتصار الوقت، وخسارة الإنسان:
قال تعالى:

﴿ والعصرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبرِ ﴾ العصر/ ١-٣.

لغوُ المشاعر:

قال تعالى:

﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يتَّخذُ مِنْ دونِ اللهِ أنداداً يُحبُّونَهُمْ كحبِّ اللهِ والذين آمنوا أشدُّ حبّاً للهِ ﴾ البقرة/ ١٦٥.

من الطبيعي أن تكون هنالك وشائجُ قلبيةٌ، وتجاذبٌ روحيٌّ عميق بين الإنسان وبين مَنْ يحب أوما يحبُّ.

بينه وبين ما يُحِب: قد يحبُّ الإنسان مالَه، أوعملَه، أوتجارتَه، أومسكنَه، أوزراعتَه.

وبينه وبين مَن يحبُّ: قد يحب الزوج زوجَه، أوابنه، أو ... أمَّا المرأة فقد تحبُّ ابنها أوزوجها.

والإسلام هو دين الفطرة.

قال تعالى:

﴿ فطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها لاتبديلَ لخلقِ الله ﴾ الروم/ ٣٠.

لقد أقرَّ هذه الصِّلات الروحية، صلات المودَّة والقربى، صلات الوجدان المشدودة بعاطفة الحبِّ. وهو لايُنكرها على الإنسان الذي خلقه اللّهُ عز وجل، وخلق فيه هذا الميل الفطريَّ، ولكن عندما تقع هذه الصلات في كفةٍ وتقع محبةُ الله في الكفَّة الأخرى، فإن رجوح الكفة الأولى يعني الشِّرك. وهو الشِّرك الخفي دون الظاهر.

لقد أَفَضْتُ في رسم صورة المرأة المسلمة من زاوية اللغو، إذ هي أكثرُ من الرجل تعرُّضاً لهذه الحالات بحكم نزعتها الفطرية، ووضعيتها الاجتماعية، وبما تملك من أوقات فراغٍ ضائعة، قد لا تتوافر للرجل كما تتوافر لها.

وتأتي خطوط أخرى ترسمها الآيات /١-١١/ في سورة «المؤمنون»، لتُكملَ لنا وصف الإنسان - المرأة المسلمة - هذه الخطوط هي:

❖ خشوعٌ في الصلاة،

❖ المحافظةُ على أوقاتها،

❖ أداءُ الزكاة،

❖ تطهيرُ النفس من نوازع الشحِّ والأَثَرة،

❖ ضبطُ النفس، وعدم الانسياق وراء الغرائز والشهوات، للحفاظ على طهارة الأسرة والأنساب والمجتمع...

هذه جولةٌ خاطفة كان لابدَّ من القيام بها في رحاب «المدرسة الإسلامية»، لبناء شخصية الإنسان المسلم وتخريجه إنساناً جديراً بهذه الصفة التي يحمل.

ولْنَعُدْ إلى المرأة.

إنَّ المرأة التي لاتأخذ من هذه العلوم في المدرسة الإسلامية إلا لباس التخرُّج، فترتدي لباس التقوى دون أن تمحوَ أمِّيَّتها، يصبحُ لباسُها الإسلاميُّ مادةً مضحكةً فعلاً، تبعث على السخرية، فهي تقدِّمُ نسخةً ناقصة وأكثرَ تشويهاً أمام الآخرين، الذين يجهلون أنَّ هنالك لوحةً أصلية، هي المرأة المحجَّبة خريجةُ مدرسة الحضارة الإسلامية فكراً، سلوكاً، وثقافة.

اللوحةُ القبيحة

التناقض والتناسق ضدَّان، فإنّ كان التناسق أحد أوجه الجمال، فلابدَّ أنْ يكون التناقض إحدى سماتِ القبح.

تعريفُ لباس المرأة المسلمة.

بناءً على ما سبق، نُعرِّف به فنقول:

هو لباس التقوى منذ هبوط آدم وزوجِه إلى الأرض، حتى إعلان الدعوة الإسلامية من قِبَلِ النبي الأُمِّي محمد ﷺ، دعوةً أعلنت الكمال والتمام.

وصفُه:

١) يغطِّي رأس المرأة وجسمها، فلايَظهر إلا الوجهُ والكفَّان.

٢) واسعٌ لايَصِفُ.

٣) سميكٌ لايَشِفُّ.

وبالتالي فهو:

٤) يمكن ألا يكون متعارضاً مع اللباس الدارج الحديث، حتى لايبدو شاذاً أوملفتاً للنظر.

٥) يمكن أن يكون متمشياً مع مقتضيات العمل، حتى لايعيق الحركة.

غايتُه:

١) إثبات حالةٍ من المساواة.

٢) المحافظةُ على الفطرة السليمة بين الرجل والمرأة.

٣) حجب مواطن الفتنة، لإضفاء صفة الاحتشام والخشوع والتقوى.

٤) هويةٌ للمرأة المسلمة، تدفعها إلى الارتقاء بمظهرها وسلوكها، لإعطاء فكرةٍ تليق بحمل هذه الهوية.

٥) إضفاءُ صفة التقوى، والتقرُّبُ من الله بصفة الحجاب، إنه «لباس التقوى».

وعندما يتعارض الوصفُ والغاية، فلا يحجب الحجابُ مواطنَ الفتنة مثلاً... عندها تبرز مشكلةٌ، إذ يُفقَد التناسق ويَبرزُ التناقض، ويصبح القبحُ طابعاً للوحة المسكينة.

إنَّ أوجه التناقض متعددة:

* التبرُّج: طلاءُ الوجه بمساحيق زينة فاقعة.
* بنطالٌ ضيق.
* تنورةٌ ذات فتحة عالية.
* غرَّةٌ الشعر تغطِّي الجبهة.
* طاقيةٌ لاتفيد في ستر الجيب «العنق».

استناداً إلى مقاييس الجمال. تبدو هذه النسخة بعيدةً عنها كلَّ البعد، وتضيف إلى سابقاتها نسخةً مشوهة، لاتنتمي إلى اللوحة الأولى المتناسقة الجميلة، بانسجامها الرائع بين الوصف والغاية.

نُسخٌ أخرَى

كأيٍّ عمليةِ طباعة، لابُدَّ أن تَصدر عن آلة العمل نسخٌ ليست طبق الأصل. وهنالك العديد منها، التي لايمكن إحصاء عددها، أوجلاءُ كيفية اختلافها عن النسخة الأصلية، وقد تنجح إحدى هذه النسخ في الفرار، فلا تكون مسروقةً، أوخالية، أوناقصة، أوقبيحة، أوإنها لوحة مهملة في جناح الحريم، فتهجرُ بعض النساء عتمةَ الحريم كي تمارس قليلاً من نشاطات مهنية أوعلمية أو .. وتفر بعضهنَّ من قائمة المسروقات فلا نستطيع أن نضمها إلى زمرة اللوحة المسروقة، إذ أنَّ صاحبها قائم، راكع ساجد، يبارك لباس التقوى ويحثُّ عليه، فهو مستثنى أيضاً من لائحة اللوحة الخالية.

كذلك قد يكون من الإجحاف أن نضعَ صورة المرأة في سياق اللوحة الناقصة، فقد تكون ذات خلق وعلم وأدب.. وذات لباس محتشم يعلن تناسقاً بين الوصف والغاية.

إنه ليس لباس التقوى، رغم استيفائه للشروط ظاهراً.

ولكن لِمَ، يا ترى، لانستطيع أن نجعل من هذه النسخة غلافاً لكتاب يحمل اسم «لباس المرأة المسلمة»، أوآخر يحمل اسم «لباس التقوى».

إننا نسقط هنا في شرَك الحَيْرة والأسف، فالنسخة الصادرة عن آلة الطباعة مستوفية الشروط حقاً ولكن ...

في بعض البلدان الإسلامية، وباعتبار أنَّ معظمها يقع في المنطقة الحارة، كثيراً ما تُشاهد ظاهرةٌ تسترعي الانتباه:

يتبختر أحدهم مرتدياً «الشورت الشرعي» الذي لاغبار عليه كمقاييس تغطي العورة، فيتمشَّى في الأسواق محدِّقاً فيما يحيط به من نساء سافرات أجنبيات... وإذا شئنا التفاؤل: قد يغض من بصره، ولكن لابأس من أن يتجاوز النظرة الأولى، التي هي له، إلى ثانية وإن كانت عليه ! بينما تتعثَّر زوجته في عباءتها الفضفاضة وهي تحاول جاهدة اللحاق به، إما لبدانتها، أولأنها تحمل طفلاً وتجرُّ آخر. أولأنها تنتظر مولوداً يعيق حركتها.

هنالك الكثير من الأمثلة التي ترى في الجوامع، في الشوارع، في الأسواق. أمثلةٌ لايوجد نص شرعي مباشرٍ يعتمد على القرآن والسنة يحاصرُها، لأنها في الحقيقة لاتمسُّ الشرع ولاتتجاوز حدود المحظورات في الشريعة الإسلامية، ولكنها تبقى بعيدةً عن الأناقة والجمال، فلاتستسيغها النفس ولاتطيب لها العين.

فما هو الحلّ؟

لقد تكلَّمتُ في كتابي السابق عن الباب الذي دخلت منه إلى عالم الإسلام، وهو «باب الحبِّ».

وعن نافذةٍ أطللتُ منها على دنيا الإسلام، وأسميتها «نافذة الجمال».

وقلتُ: إن كان حبِّيَ للإسلام قد تحقق كشرط أول، فلاتزال أمامي مسؤوليةُ تحقيق الشرط الثاني، وهو أنْ أجعلَ من هذا الحبِّ حقيقةً جميلة.

وفي اعتقادي أنَّه ما مِنْ دواءٍ أنجعُ من الحبِّ أمام داءِ التفلُّت مِنْ تعليمات الشريعة الإسلامية وسنةِ النبي ﷺ في تعامله مع نسائه.

حبُّ الانتماء للإسلام هو الدواء الوحيد الذي يستنهض بنا، ويحثُّنا على الظهور بأكمل وأجمل صورة.

وإذا قارنَّا الصورة الأولى التي عرضتُها مع صور كثيرة قدمتها لنا السيرة النبوية، سنرى أنَّ المسافة شاسعةٌ، والهوةَ سحيقةُ القرار بينهما.

* عن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عرس، فقام النبي ﷺ فقال: (**اللهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ الناس إليَّ**). قالها ثلاث مرات [18].

* عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «وكانَ يومُ عيد يلعب فيه السودان بالدُّرَق والحراب، فإمَّا سألتُ النبيَّ ﷺ، وإمَّا قال: (**تشتهين تنظرين ؟**). قلت: نعم. فأقامني وراءَه، خدي على خده، وهو يقول: (**دونكم يا بَنِي أرفِدَة**). حتى إذا مللتُ قال: (**حسبُك ؟**). قلت: نعم. قال: (**فاذهبي**) [19].

* عن المسوّر بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: (**فاطمةُ بَضْعَةٌ مني، فمَن أغضبها أغضبني**) [20].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «... فأقبلتْ فاطمةُ ... فلما رآها

---

(١٨) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب /٧٥/، حديث /٤٨٨٥/. ج٥/١٩٨٥.
مسلم: كتاب الفضائل /٤٤/ باب /٤٣/، حديث /٢٥٠٨/. ج٤/١٩٤٨.

(١٩) متفق عليه. البخاري: كتاب العيدين، باب /٢/، حديث /٩٠٧/. ج١/٣٢٣.
مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب /٤/، حديث /٨٩٢/. ج٢/٦٠٩.

(٢٠) أخرجه البخاري: كتاب الفضائل /٦٦/، باب /١٢/، حديث /٣٥١٠/. ج٣/١٣٦١.

رسول الله ﷺ قال: (مرحباً بابنتي). ثم أجلسها عن يمينه أوعن شماله (٢١).

* عن أبي قتادة الأنصاري، أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حاملٌ أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجدَ وضعَها، وإذا قام حمَلها (٢٢).

* عن أبي الطفيل قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ يَقسم لحماً بالجُعرَّانة، إذ أقبلتْ امرأة حتى دنت إلى النبيِّ ﷺ، فبسط لها رداءه فجلستْ عليه. فقلتُ: من هي؟ قالوا: هذه أمُّه التي أرضعتْه (٢٣).

إنَّها لمحاتٌ شفافةٌ لأدب الرسول ﷺ الراقي في تعامله مع النساء والأطفال، وما هذا الهدي من رسول الله ﷺ إلا لمساتٌ رقيقةٌ أبدعتها السيرةُ النبويةُ لتضفيَ سمة النبلِ والرِّقة على قسَمات اللوحة. فيبدو لنا الإنسان المسلم متميزاً أنيقاً، تنفتح له قلوب مَنْ حوله، وتهفو النفوسُ إلى صحبته والتعرُّف إليه والاقتداء به.

---

(٢١) متفق عليه. البخاري: كتاب المناقب، باب /٢٢/ حديث /٣٤٢٦/. ج٣/١٣٢٦.
مسلم: كتاب الفضائل، باب /١٥/ حديث /٢٤٥٠/. ج٤/١٩٠٥.

(٢٢) متفق عليه. البخاري: أبواب سترة المصلي، باب /١٦/، حديث /٤٩٤/. ج١/١٩٣.
مسلم: كتاب المساجد، باب /٩/، حديث /٥٤٣/. ج١/٣٨٥.

(٢٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، حديث /٥١٤٤/. ج٤/٣٣٧.

صورةٌ للاقتداء

إنَّ تكدُّسَ آلافِ النُّسخ المشوَّهة أضاعَ على الكثيرين إمكانيةَ رؤيةِ اللوحةِ الأصلية، وإنْ كانت كتبُ التاريخ تزخرُ بالمئات من النسخ السليمةِ الصحيحة «صورة طبق الأصل»، والتي يمكن الاقتداء بها، فإنِّي أرى ألا نلجأ إلى الماضي فقط لنستقي منه أمثلتنا، رغم مصداقيتها، لأنَّ الحاضر، كذلك، لايخلو من نسخ حيَّةٍ رائعة، يمكن أن نتأمَّلها قدوةً للمرأة العصرية المسلمة.

صديقتي المهندسة «نجوى عثمان» انعكاسٌ حقيقي للوحة الحجاب الأصلية، وهناك كثيرات غيرها في بلدي، على الأقل:

مهندسات، طبيبات، قانونيات، مدرِّسات لامعات يستحققن جميعاً الاحترام والثناء والتقدير.

حازت نجوى عثمان على دبلوم الهندسة الإنشائية بتقدير جيد جداً.

ودبلوماً من معهد التراث العلمي العربي، في حلب، بتقدير جيد جداً.

ودرجة الماجستير في التراث العلمي العربي، تاريخ العلوم التطبيقية، بتقدير شرف، وكان موضوع رسالتها «الهندسة الإنشائية في مساجد حلب»، وقد اتخذت جامعة حلب قراراً بطباعتها، كأول رسالة تطبع في معهد التراث.

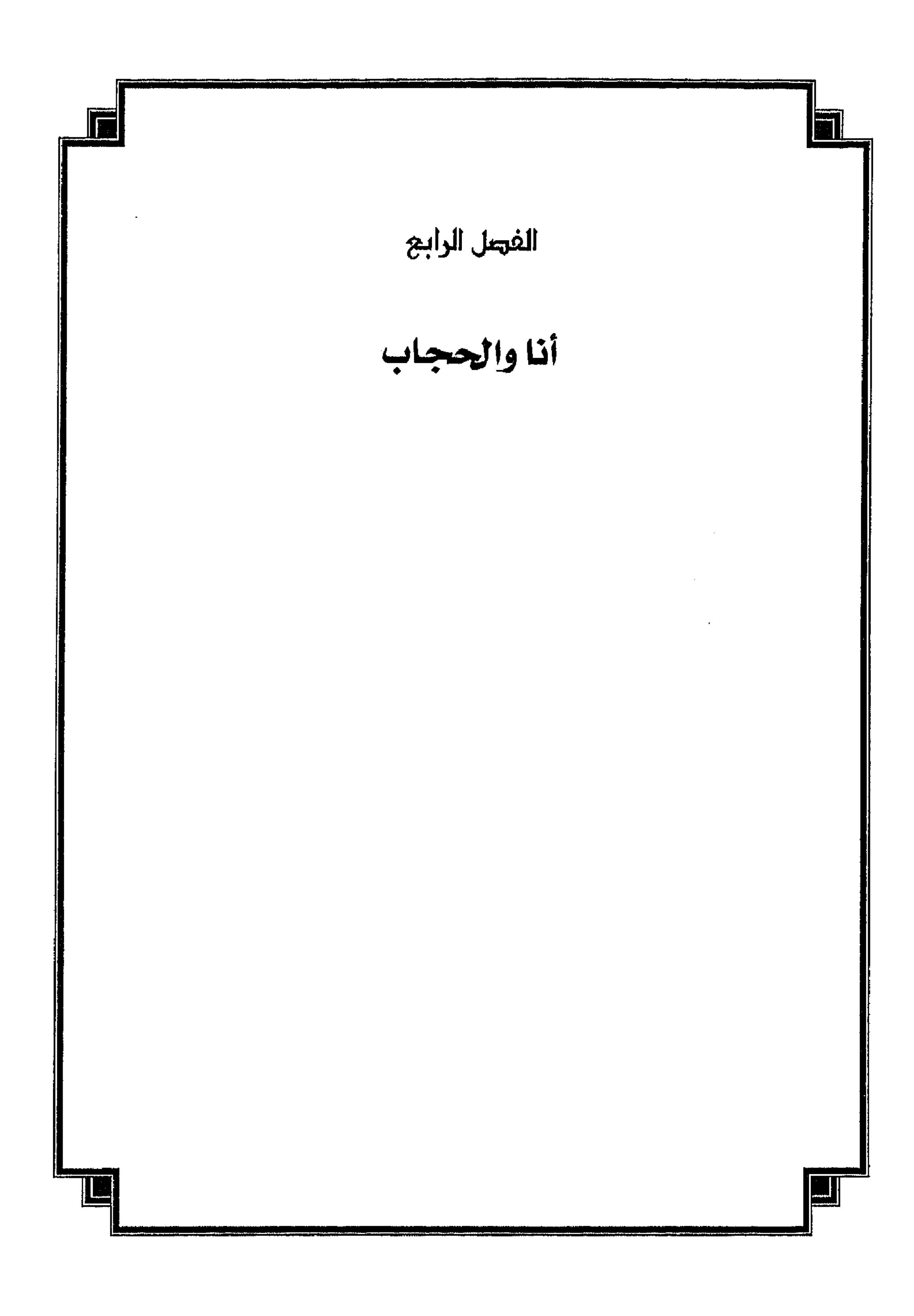
وهي تحضِّر حالياً رسالتها لنيل الدكتوراه في تاريخ العلوم التطبيقية، تحت عنوان «دراسة هندسية مقارنة بين مساجد حلب ومساجد القيروان».

وذلك بعد أن أقامت في تونس مدة عام كامل، قامت خلاله بدراسة ميدانية

لجميع مساجد وزوايا القيروان، وأخذت مقاييسها، مع دراسة تاريخية للمخطوطات والكتب المتعلقة بالموضوع [٢٤].

كان حضورُ المهندسة نجوى بلباسها الإسلامي، مستوفِيِ العناصرِ من تناسق كامل بين الوصفِ والغاية، مثلاً حيَّاً وتحقيقاً فعليَّاً لمساواة المرأة بالرجل. إذ إنَّ أيَّ مظهرٍ للزينة، أوالفتنة، سيعزز حصولَ المرأةِ على درجةٍ علميةٍ قد لاتستحقها، مما سيُشعِرُ الرجلَ بالظلم، ويؤدي إلى أنْ يُبخَسَ حقُّه في ذلك، لعدم امتلاكه مقوِّمات الفتنة التي تملكها المرأةُ.

(٢٤) تمَّت مناقشة أطروحتها يوم ٣٠/أيار/١٩٩٨ في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، وحازت بها درجة الدكتوراه في تاريخ العلوم التطبيقية عند العرب.



الفصل الرابع

أنا والحجاب

سألني أحدهم : هل لك أنْ تُلَخِّصي في جملة أوجملتين ، لماذا تحجبتِ ؟ أجبتُ : لقد أحببتُ الله ، وأحببتُ أنْ أرتديَ ما يُحبُّ .

دينُ الفطرة

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ دينُ الفطرة، كما سبق وقلتُ، وإنْ أعطى للعقل قيمةً عظيمة، كانت المنارةَ الأولى في رحلة النقد، التي طفنا فيها بين أمواج المدِّ والجزر، بين أصوات المعارضة، وهتافات المطبِّقين.

هذا الدين لم يغفل دورَ القلب، القلبِ وما يشعر؛ العاطفة، وما تصبو له من مكانة في التصور الإسلامي.

وإنني، ولا أخفي على القارىء، أعترف أنَّ للقلب في كياني صوتاً مسموعاً أصغي إليه، لم أستطع تجاهله يوماً. كيف وقد كان دليلي الأول، يقود خطواتي المسافرة بين الفيافي والقفار، بين الحقول والجبال.

ثم قادَ خطاي المتعثِّرة في القرب، ثم التقرُّبِ من الله. إلى أن ابتدأت رحلة الجهاد لأتَّخذ لنفسي مقعدَ الاعتدال في الساحة الاسلامية.

رحلةُ القُرب

إنَّ رحلةَ القرب قديمةٌ ابتدأتها منذ أنْ أخذتِ الأشياءُ مسمَّياتها عندي،

فعرفتُ الله في الزهرة الفوّاحة، في الفراشة الحيرى، في قلب الرّمانة الوردي، في دبيب النملة الوئيد.

عرفتُ اللهَ في الليل الساجي، والطير الشادي، في شفافيةِ الغسق، ووَضَاءة البدر، في همسات الأشجار، وأنين الرياح، وثرثرة الجداول.

وعَرفتُ عظَمة الخالق مِنْ عظمة خَلقه، وتذوّقتُ للجمال طعماً سائغاً.

وأحببتُ أن أشْكرَ... فإذ بالشكر يُوقِظ العرفان، وإذ بالعرفان يُضرِم الحبَّ... وأفقتُ... فإذا الحبُّ أفقٌ فسيح مترامي الأطراف.

صحوتُ فجأة منذ سنوات، ووجدتُ أني تائهةٌ في هذا الأفق البعيد... إنه أفقٌ وضّاء بهيٌّ ساطع. ولكنَّ رحابَهُ كانت أوسعَ مِنْ أنْ أستطيع الإلمام بها، والإحاطةَ بحدودها وأبعادها. ووقفت حائرةً مضطربة؛ من أين أبدأ ؟ وكيف ؟

وقلت لنفسي: للحبِّ تكاليفُ والتزاماتٌ كي أفوز برضا المحبوب.

وتلمَّست طريقاً للرضى في كتاب الله، ومع أنَّني كثيراً ما قرأتُه، إلاّ أنِّي فوجئتُ بكثيرٍ ممَّا لم أفهم، أوكأنني لم أقرأ مِنْ قبل، فلجأتُ إلى كتب التفسير، وآراء الباحثين، والمؤرِّخين، والمتفقِّهين، والناصحين... عدوتُ بين السطور، وارتحت قليلاً أمام القوافي والألفاظ والمعاني.

استوقفتني آراءٌ متضاربة، وأفكارٌ مستجدة، وأخرى معارضة، ووجدتني ظمأى إلى الحقيقة... إلى أن قرأتُ قول رسول الله ﷺ: (**استفتِ قلبَك... وإنْ أفتاك الناسُ وأفتَوْك**) [1].

---

(١) أخرجه أحمد، والدارمي: كتاب البيوع، ج٢/٢٤٦.

آهٍ ! إذاً هذا القلب الذي طالما استمعتُ إليه... له قيمةٌ في الإفتاء، وبرأيٍ مِنّ حبيبِ الله يزكي هذا الصوتَ ويعززه ويقوِّيه.

عرفتُ اللّه في قلبي.

وعرفتُ الله في قلبي. ولكن أيَّ قلب هذا الذي ينبغي لنا أن نسأل ونستفتي؟ أهو قلبٌ علاه الصدأ، واكتنَفه الغبارُ، وأوصدَ على محبَّةِ الدنيا، ونوازعِها، ومشاحناتها، وأحقادها، وأطماعها، وشهواتها، وتفاهاتها، وأهوائها... قلبٌ لامكانَ فيه إلا لحبِّ المالِ... العملِ... النجاح... الأولاد... قد رَجحتْ فيه محبةُ هؤلاء على محبةِ الله ؟ أم هو قلبٌ كهذا الذي ينبغي أن يُسأل:

عاش مجاهداً للمعرفة: ﴿ والذينَ جَاهدُوا فينا لنَهْدينَّهم سُبُلَنا ﴾ العنكبوت/٦٩.

عاش ذاكراً: ﴿ ألا بذِكرِ الله تَطمئنُّ القلوبُ ﴾ الرعد/٢٨.

عاش راجياً: ﴿ إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ﴾ الشعراء/٨٩.

عاش ساعياً: ﴿ ومَن يُؤمنْ باللهِ يَهْدِ قلبَه واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم ﴾ التغابن/١١.

عاش خاشعاً: ﴿ مَنْ خَشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ مُنيبٍ ﴾ ق/٣٣.

عاش مُتيقظاً: ﴿ إنَّ في ذلك لَذِكرى لِمَنْ كان له قلبٌ أوألقَى السمعَ وهو شهيد ﴾ ق/٣٧.

عاش متفكِّراً: ﴿ أفلمْ يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلونَ بها ﴾ الحج/٤٦.

وأخيراً وجدتُ الرضى، ونلتُ الجزاء:

﴿ ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليكمُ الإيمانَ وزيَّنه في قلوبكم ﴾ الحجرات/٧.

وحلمتُ ذات ليلة

بيني وبينَ لوحة لباس التقوى علاقةٌ ودٌّ خاصة، وغريبةٌ بعض الشيء، كنت أتأمَّلها مليّاً في معرض الحضارة الإسلامية، وأعجبُ بها، وأقنَعُ بقيمتها وفائدتها، ولكنها كانت أغلى مِنْ أنْ أستطيع الإنفاق للحصول عليها، فالإنفاقُ يعني أنْ أتخلَّى عن مظهري، وأنتقلَ إلى شكل آخر لن أعتاد عليه بسهولة، ولن يعتادَ الآخرون عليه. وسيرون تناقضاً بينه وبين فنانة تقيمُ المعارضَ في بلاد غربية، قد لاتتقبَّل المظاهر الإسلامية بسهولة، ولا تستسيغ ملابسَ القرب من الله.

وحدثَ ذات ليلة أنْ رأيتُ فيما يرى النائم:

أنني أمشي وحيدةً في أحد شوارعِ حلبَ الرئيسية، ساحة باب الفرج، وكنتُ ما أزال وقتها أسكنُ في دمشق، فإذا أنا أمام صديقة لي، لم أرَها مذ كنتُ في الإعدادية، كانت وقتها، أسوةً بي وباقي الفتيات، لاتضع حجاباً، فإذا هي ترتدي جلباباً أسودَ سابغاً، وتضع على رأسها غطاءً أسودَ يحيط بوجهها المشرقِ الوضَّاء.

وهتفتُ قائلة: عائشة ! أراك قد تحجَّبت !... وأسرعتُ لمصافحتها، مهنئةً إياها على هذه الخطوة الجبَّارة، في رأيي، فإذا بيدي اليمنى مطبقةٌ على قطعة نقدية من فئة الليرة الواحدة. وبيدي اليسرى أحملُ القرآنَ الكريم.

صافحتُها، ولكنَّ يدي ظلَّتْ مطبقةً بقوة على الليرة الفضية، ولما غادرتُها شعرتُ بحسرة مريرة، وندم مبرح يصرخ بي: لماذا لم تبسطي إليها يدك،

معبرةً لها عن سعادتك بلقائها ؟

لماذا لم ترمِ هذه الليرة الحقيرة التافهة ؟ ترى لو أعطيتِ هذه الليرة، لمتسول ألن يهزأ بها ؟

وشعرتُ بالدموع السَّاخنة تترقرق، وتفيض من عيني ندماً. ولكنَّها هتفتْ بي قائلةً، ضاحكة مستبشرة:

ناديا !... لاتحزني، أنا واثقةٌ أنك ستعودين لي ذات يوم، إنَّني أنتظرك هَهنا.

وأفقتُ وطعمُ الدمع المالح في حلقي... وجلستُ هنيهاتٍ أتفكَّر في هذا الحلم الغريب، وقفزتْ إلى ذهني فكرةٌ وخزتني كدبوس حادٍّ مزعج.

آهٍ ! كتابي بيساري، والدنيا في يميني. يا للهول ! هذه الدنيا التافهةُ مازلتُ أقبضُ عليها بيميني.

وتساءلتُ: أيمنُّ الله عليَّ بنعمةٍ عظيمة، فيريني كتابي بيساري لأتدارك الوقت ؟ أيمنُّ الله عليَّ بأن أرى الحق حقاً فأتَّبعه، وأرى الباطل باطلاً فأجتنبَه قبل فوات الأوان ؟ وأين منزلتي بينهما ؟

ولكن، وفي ذلك الوقت، كنت فقيرةً في استعداداتي، في قناعاتي، وفي إمكانياتي لشراء اللوحة. فأعرضتُ وقلت لنفسي بعد أيام: أضغاثُ أحلام !

ثمَّ قررت أن أدفع ثمن اللوحة. مهما كان.

ومرَّت سنوات، وأنا أسترقُ النظرَ إلى اللوحةِ، معجبةً بها، متحسرةً على ثمنها، إنه باهظٌ... وأنا مازلت لا أملكه.

كيف سأُفسد راحتي، وأُقلقُ معيشتي، وأستبدلُ بلباس القرب من الناس لباساً آخرَ ؟!

إنني معتادةٌ هكذا، ومرتاحة...

لا. لا أستطيع القول أبداً أنني كنت مرتاحة، لأنني كنت أعرف الحقَّ وأعرض عنه.

وبدأت أحسدُ فعلاً من تلقَّتْ هذه اللوحة كإرث، فهي على الأقل في غنى عن هذا العناء، وهذا الصراع الذي أكابده.

عندما كنتُ اعتكف في أواخر شهر رمضان، فأصلِّي وأتعبَّد ربي في ليلة القدر، ثم أخرج من الجامع لأخلعَ لباس التقوى، وأعودَ إلى سابق عهدي، كنتُ أشعر أنني أسبح في بركة من النفاق.

عندما كنت أسمع بوفاة شخص ما، قريبٍ، أوعزيز، أوصغير السن، كنت أعرف أنني أخوض مع الوقت معركة خاسرة.

وصادفَ أن عدتُ إلى حلبَ من جديد، لأقطن فيها بعد غياب دام ثماني سنوات، وأطلَّ شهر رمضان، في الوقت الذي كانت فيه سبل الهداية قد بدأت تتضحُ أمامي شيئاً فشيئاً، وقررتُ أن أجعلَ منْ لباس التقوى لباساً دائماً.

في اليوم الأول أرتديتُ قبعةً أنيقةً مخملية سوداء، وقلتُ لنفسي: لابأس، هي مرحلةٌ انتقاليةٌ بين لباس التقوى ولباس الموضة، حتى لا أتعرَّضَ منَ الآخرين لانتقاداتٍ لاذعةٍ أنا في غنىً عنها، فأنا مازلتُ أقيمُ وزناً لآراء الناس.

لقد أصبحت غنيّة. إنّني أستطيع الإنفاق.

وفي ذات الليلةِ حلمتُ حلماً آخر:

رأيتُني أمشي في مكانٍ ما، مجهول، معتمرةً هذه القبعة، وفيما كنتُ أسير انزلقتُ على ظهري، ووقعتُ أرضاً، فلامستِ النارُ قبعتي الجميلة فأحرقتْها، وسمعتُ مَن يقول: لابأسَ... لاعليك، لم يُصبك أيُّ أذى، لقد احترقتِ القبعةُ فقط. خذي غيرها.

والتمستُ غطاءً عادياً، أحاطَ برأسي وعنقي... وأفقتُ، وشعرتُ أنني غنيةٌ أكثرَ من أيِّ وقت آخر... إنني أستطيع الإنفاق... إنني أملك ثمنَ اللوحة الآن. واقتنيتُها.

قال تعالى: ﴿ **وما تُنفقوا مِنْ خيرٍ فلأنفُسكم** ﴾ البقرة/ ٢٧٢.

وقال تعالى: ﴿ **وما تُنفقُوا مِنْ خيرٍ يُوَفَّ إليكم وأنتمْ لاتُظلمون** ﴾ البقرة/ ٢٧٢.

لقد أنفقتُ، ولكنَّ المكاسبَ كانت أكثر مما توقعتُ، فما كان لي زينةً أصبح سراباً غابراً، وما اعتدتُّ عليه مظهراً للمرأة العصرية، وارتحتُ إليه فيما مضى، أضحى غربةً للنفس والروح، وباتَ القلبُ في خواء أجوف، فالتناقض بين الظاهر والباطن، بين الانتماء والواقع، يُشيع في النفس اضطراباً وفوضى.

إنَّ إظهارَ حقيقةِ الانتماء تعطي للشخصية وضوحاً مريحاً، ليس فقط للمرء ذاتِه، وإنما لمن يحيط به.

ناديا، لمَ تضعين هذا الغطاء على رأسك ؟

سألني ذات يوم أستاذي في جامعة «تورنتو» في الدرس الأخير، ويبدو أنه

قد أطمـأنَّ إلى أنني لا أحمل أيَّ مظهر مِنْ مظاهر العنف، بالرغم مِنْ أنني مسلمةٌ ملتزمة بلباس الإسلام. قال:

ناديا، لمَ تضعين هذا الغطاء على رأسك. هل لأنك تنتمين إلى الشريعة الإسلامية ؟

أجبتُ: هذا الغطاء ليس من الأمور الأساسية التي يرتكز عليها الدين الإسلامي، هنالك الكثير من الأمور الجوهرية التي تستحقُّ التحدُّثَ عنها إلى شخص مثلك، لايعرف شيئاً عن هذا الدين، ولكنْ أحبُّ أن أقول لك:

إذا قابلتَ أي شخص كان، ووجدتَ أنه مُنْتَمٍ لمذهب ما، مِنْ ألِفه إلى يائه، دون تطرف، فإنَّ هذا الشخص لابدَّ وأنه يحمل الإخلاصَ والصدق في سريرته، فكيف لمن كان ينتمي إلى شريعةٍ لاتحضُّ إلاعلى مكارم الأخلاق، والتسامح، والكرم، وخير الإنسان عاجلِه وآجلِه.

هل ترتدينه أثناء النوم أيضاً ؟

أثناء إقامتي في كندا كنت أتعرَّض للكثير منَ التساؤلات عن لباسي:

ما هو ؟

أو: لِمَ هو ؟

أو: ألستِ متضايقةً منه، والطقسُ حارٌّ، ودرجةُ الرطوبة عالية ؟

سألتني ذات مرة فتاةٌ يابانية: هل أرتدي غطاء الرأس أثناء النوم أيضاً ؟

الحقيقةُ أنَّ هذه التساؤلات كلَّها دفعتني إلى البحث والتقصّي عن الحكمة مِنّ لباس الإسلام، فالشريعةُ الإسلامية شريعةٌ تُفرد للعقل مكاناً عظيماً، بل

وتحثُّنا دائماً على البحث عن الحكمة منْ أحكامها، فحين يمتلىء العقل قناعةً تنساق الجوارحُ وراءَه مطيعةً راضية، دون تلكؤ، ويتمُّ التناسق والتكامل بين السلوك والمظهر من جهة، والقناعات الذاتية الكامنة من جهة أخرى.

ويزداد التناسق طرداً مع إمكانية ارتقاء المسلم منابرَ الدعوة الدينية، واعتلائهِ مكانةَ القدوة الحسنة، ممَّا يحثُّ الآخرينَ على الانضمام إلى موكب صاحبها.

الحقيبةُ الضائعة.

تحدثت في فصل «الحكمُ على اللوحة، رأي الناقد»، عن صفات الداعية، ولديَّ في جعبتي، في هذا المضمار، قصةٌ قصيرة من أرشيف ذكرياتي في «تورنتو» في كندا.

في صيف عام /١٩٩٥/ أقمتُ في هذه المدينة مدةَ شهرين، بصحبة ابنتَيَّ: عليا «أربعةَ عشر عاماً»، وسلمى «خمسة أعوام».

في أحد أيام العطلة الأسبوعية عزمنَا، نحن الثلاثة، على الذهاب إلى سوق كبير Mall يبعدُ عن مكان إقامتنا حوالي مئة كيلو متر، ناشدين التسلية والتسوق.

في المحطة احتشد عددٌ لابأس به من الناس في انتظار الباص الذي سيُقلُّنا إلى ذاك السوق.

لم يكن في المحطة سوى مقعدٍ حجري صغير، لايتسع إلا لشخصين، جلستُ عليه أنا وابنتي الصغيرة سلمى، عندما أتت سيدةٌ في العقد الخامس من عمرها، لم أتردَّد فطلبتُ من سلمى أن تجلسَ في حجري، وأفسحتُ مكانها

للسيدة، فجلستْ بقربي والدهشةُ تفيض من عينيها، وهي تتمتمُ بعبارات الشكر والامتنان، فهذه البادرةُ، على بساطتها، لها شأنها في بلادٍ لاوجود فيها لمثل هذه الاعتبارات. مثلاً: لا وجود لرجل يقدِّم مكانه لسيدة، مادامت المرأةُ تنشد المساواةَ بالرجل فلتقف مثله، وكثيراً ما رأيتُ شباباً لايُفسحون أماكنهم لسيِّدات مسنَّات، ومَن أتى أولاً فله حقٌّ الجلوس، دون أيِّ اعتبار للجنس أوالسِّن.

كان الطريق طويلاً، ولم تفتأ السيدة خلاله عن اختلاس نظرات مستغربة.

إنسانةٌ مسلمةٌ، واضحةُ الهوية بلباسها، تقدِّم لها مقعداً !

إنسانةٌ تنتمي إلى الدين الذي وُسم بالعنف والإرهاب والهمجية، هل يمكن أن تمتلك قدراً ضئيلاً من الذوق، يجعلها تقدم مكانَ طفلتها لشخص غير مسلم.

كبحتُ ابتسامتي أمام نظراتِها، فيما كنتُ أحدِّق في سماء تورنتو الصافية من نافذة الباص، وأهمس:

اللهمَّ إنْ كنتُ قد فعلتُ هذا لقاء وجهك، فتقبَّل مني عملي هذا.

دعوةٌ بسيطة، همسةٌ خافتة، ومضةٌ ضئيلة في سماء هذا الدين الذي أحمل هويته.

وصلنا السوق ظهراً، وكان مكتظاً، كالعادة أيام العطل، مكثنا فيه بضعَ ساعات، انتقينا بعض الملابس، والهدايا، والحاجات، وكنا نحشرُ المشتريات كلَّها في حقيبة سوداء، متوسطة الحجم ذات عجلات، كنتُ قد اصطحبتُها معي صباحاً خصيصاً لهذا الغرض، فالسوقُ واسع، والمغرِيات كثيرة، والعودةُ

آخر اليوم مع أكياس متفرقة ورطةٌ كبيرة.

قبيل إغلاق السوق بحوالي الساعة، كان الجوعُ قد أخذ من سلمى الصغيرة مأخذه، فسعينا إلى ساحةُ الطعام، وهي ساحةٌ كبيرة تتوزع فيها الأكشاك المعتمدة على الخدمة الذاتية، والتي تبيع مختلفَ أنواع الأطعمة، صيني وعربي ومكسيكي...، وقفتُ أنتظر في خط طويل، بعد أن حددت الطلب للبائعة ذات الأصل الكوري: ثلاث وجبات دجاج، وكأسين من الكولا من فضلك.

حملتُ الطعام ناسيةً الحقيبة ذات العجلات، ومضيتُ إلى حيث رُصَّت المقاعد والطاولات، فتهالكتُ على أول مقعد صادفتُه، وجلسنا نحن الثلاثة نتناول طعام الغداء.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً عندما علتّ صافرات الشرطة تعلن إغلاق السوق، وتدعو الزبائن إلى الانصراف.

صاحت عليا: ماما. أين الحقيبة ؟ هل كانت معي أم معك ؟

بين سؤالي وسؤالها، علمت أننا قد أضعنا الحقيبة بما تحوي.

في رحلة العودة خيمَ علينا وجومٌ مطبق، حتى سلمى الصغيرة عزفت عن تناول كيس البطاطا، فأطبقتْ عليه كفَّها الصغيرة، وهي نائمة في حجري.

في الليل، وعندما هجعتُ في فراشي، جاءني هاتفٌ سماوي:

إنَّ الله قد تقبلَ منك صنيعك مع السيدة الكندية، وستجدين الحقيبة.

في اليوم التالي، الإثنين، صحونا باكراً، وأخذنا طريقنا الاعتيادي نحو الجامعة، جامعة تورنتو، حيث لكلٍّ منا نحن الثلاثة صفٌ نتلقى فيه برامجَ باللغة الانكليزية، تتناسب مع العمر ودرجة الثقافة.

غادرتني عليا عند باب الجامعة كعادتها، ثم مضيتُ مع سلمى إلى جناح الأطفال، وما إن غابت عن نظري مع معلمتها، حتى تسللتُ وعدت أدراجي، واستقلَّيت «المترو» متوجهةً إلى محطة الباص، الذي سيقلني بدوره إلى السوق.

كان الوقت مازال مبكراً، والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، والباعةُ مايزالون منهمكين في تنظيف حوانيتهم.

مررت بهم جميعاً، وحكيت لهم قصتي عسى أن أكون قد نسيت الحقيبة في إحدى الحوانيت، شاركني البعض آسفاً، ولوَّح البعض يائساً، ونصحني سواهم بتقديم شكوى إلى مكتب المفقودات.

في نهاية المطاف، وصلتُ ساحةَ الطعام، وجلست في مقعد الأمس ذاته، أنتظر البائعة الكورية أن تفتح نافذة الكشك، وما إن لاح وجهها وراء الزجاج حتى هرعت إليها، وسألتها عن الحقيبة الضائعة.

أبدتْ دهشةً عارمة، وأجابت على الفور: إن الكشك له حاجزٌ عال بعض الشيء، يمنعها من رؤية حقيبة تُجرُّ على الأرض. وأضافت: لو أنها كانت حقيبة يد ووضعتِها على المصطبة، فلربما رأيتها واحتفظتُ بها.

وأعربتْ عن عميق أسفها، خاصة وأن وقت البارحة كان غير مناسب البتة، ففي الوقت الذي ضاعت فيه الحقيبة، كانت آلاف من الجحافل البشرية تغادر المكان، ولابدَّ أن أحدهم قد أخذها.

تلكأت قليلاً قبل أن أنصرف، في الوقت الذي بزغت فيه من الداخل سيدةٌ مسنة، وبدأت الاثنتان تتكلمان اللغة الكورية، طلعتْ بارقةُ أمل، ثم التفتتْ إلي المرأة المسنة قائلة: صفي لي حقيبتك، وما بداخلها. ولما فعلتُ، انطلقتْ إلى

الداخل، ثم عادت وهي تجرُّ الحقيبة.

لم أصدق ما أرى. أعطيتُها مكافأة سخية لأمانتها، وابتسمتْ لي شاكرة وهي تقول: صدقيني، يمرُّ بدكاني يومياً آلاف من البشر، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أطلَّ من شباك الكشك في اللحظة التي بارحتِ فيها المكان، ورأيتُ الحقيبة، فخرجتُ واحتفظت بها، عسى أن تعودي لأخذها.

أما أنا فقد كنت أعرف تماماً من الذي دفعها لذلك.

ناولتني الحقيبة، وطلبت مني أن أفتحها كي أطمئنَّ على سلامة الحاجات كلها، ولما غادرتُها متجهةً إلى بوابة الخروج، اغرورقت عيناي بالدمع وأنا أتمتم حديث الرسول ﷺ:

(... أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ) [٢].

من بابـ الحبـّ

هنالك تعليقٌ بسيط على هذه القصة.

إنني لا أودُّ أن يفهم أحدهم من خلالها أنني قمتُ بهذا المعروف المتواضع مع السيدة الكندية لأنني أنتمي إلى فئة صاحبات اللباس الإسلامي، دون أيِّ اعتبار آخر. فكثيراً ما قمت في حياتي، وربما في مواقف أكثر حرجاً وصعوبة، من هذا الموقف، وكنت لا أتوانى عن تقديم أيِّ معونة أومعروف لمن هم بحاجة.

ولكني بعد أنْ أطللتُ على الشريعة الإسلامية من نافذة الجمال، ووقفتُ

---

(٢) متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب /٣٦/، حديث/٥٠/. ج١/٢٧.
مسلم: كتاب الإيمان، باب /١/، حديث /٩/. ج١/٣٩.

أتأمَّل هذا الكون البديع الصنع، المتكامل التكوين، عزمتُ أن أدخل رحاب هذه الشريعةِ من باب جميل، هو **باب الحبِّ**.

وقد تكون لهذا الرحاب أبوابٌ شتى، فمنهم مَن يلج إليها من باب الرهبة والخوف، وبعضهم من باب التوبة والرجاء، وآخرون من باب الابتلاء والشدة.

ولكنني رأيت أن صفة الحب للخالق تحمل هذه المشاعر كلها، فالمحب يخاف مِنْ غضب مَنْ يحب ويرجو رضاه، ولايدع وسيلة تفوت دون التعبير عن ذلك الحب وإعلانه، وهكذا كان صنيعي المتواضع مع السيدة الكندية بادرة تقرب إلى مَن أحب... إلى خالقي.

في مجال الحجاب الذي نحن بصدده... وفيما مضى، وعندما كنت أسعى لتقديم العون للآخرين، بدافع من تربية أسرية تحض على الأدب والذوق والتضحية، كان أي صنيع مني يضيع في الزحام البشري المتعدد الأجناس والمذاهب والانتماءات. ولكن بعد أن أعلنت هويتي، أصبحتْ أيَّة بادرة قرب مني لله عز وجل تدخلُ في رصيد الانتماء، وتفسح المجال لتعاليم الدين الإسلامي ألاَّ تبقى سجينة الكتب والمجلات، وتسلط ضوءً، حتى ولو كان ضئيلاً، على لوحة لباس المرأة المسلمة. وهذه هي مسؤولية الانتماء التي تكلمت عنها في البدء. وإن تسليط الكثير من هذه الأضواء، مهما كانت يسيرة، لابد وأن يغمر اللوحة في النهاية بنور باهر وضَّاء، يجعل منها هدفاً للاقتناء والاقتداء.

قال لي أحد الصحفيين أثناء مقابلة مع إذاعة الـ B.B.C اللندنية:

«إنني آسف لظاهرة لاحظتها مراراً، إن أي خطأ تقوم به سيدة محجبة،

كأن تقود سيارتها في شوارع لندن وترتكب خطأ ما في قانون السير الإنكليزي، هذا يجعلها محط أنظار واستهزاء الجميع، في حين لو أنها كانت غير محجبة فإن خطأها لن يلفت النظر أبداً».

أجبته:

الحقيقة أنني في غاية السعادة لذلك ! فهذا لابد أن يحث المرأة المسلمة المحجبة على الحصول على شهادة القيادة بجدارة وإتقان بالغين، يقيها من الوقوع في الخطأ.

وبدوره لابد أن يؤدي ذلك إلى الارتقاء بسوية المسلمات، ودفعهن إلى الإتقان والجدية في كل مجالات الحياة، من دراسة، أوبحث علمي، أوعمل يدوي، أو... الخ.

أي إن هذا يساعد على اكتمال مجموعة صور المرأة المسلمة، كما رسمتها الشريعة الإسلامية.

بعد اتخاذي لباس التقوى بشكل دائم، فوجئت أنني قد حصلت على معظم الصور فيه، كإرث تلقيته عن والديّ، ليس تحت شعار ديني، ولكن كأسلوب من تربية رصينة محافظة:

* جملةٌ سمعتُها أنا وأختاي من والدي مراراً: «الفتاةُ سُمْعَةٌ»، ولقد وجدتها في الشريعة الإسلامية في قول رسول الله:

(كلُّكم راعٍ، وكلُّكمْ مسؤولٌ عن رعيَّته، الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته، والرجلُ راعٍ في أهله ومسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن

رعيَّتها، وكلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته) [٣].

* الحضُّ على الأدب أثناءَ مخاطبة الآخرين مهما بلغت إساءتُهم، وجدتُّه في قوله تعالى:

﴿ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناس واللهُ يُحبُّ المحسنين ﴾ آل عمران/ ١٣٤.

* وصافرةُ الإنذار التي تُطلق عند كل خلجة أوسكنة أوتصرف: «إياك. هذا عيب». وجدتها في قول رسول الله ﷺ:

(الحياءُ شُعبةٌ منَ شُعَبِ الإيمان) [٤].

واتخذتُ لي مقعداً وسطاً أمام اللوحة.

وشيئاً فشيئاً أخذت المجموعة تكتملُ لديَّ، فلم أعد تائهةً في هذا الأفق المترامي الأطراف. اتَّخذتُ لنفسي مقعداً في الوسط أمام لوحة الحجاب، وإذا بي أسمع أصواتاً من هنا وهناك. البعضُ يهزأ باللوحة، والآخر يزدريها، وثالث يأتي فيسدل عليها ستاراً كثيفاً، ورابع يعمد إلى تحطيمها.

ووجدت نفسي أرفع صوتاً للاحتجاج: مهلاً !... قد لا أملك رصيداً كافياً

---

(٣) متفق عليه. البخاري: كتاب الجمعة، باب /١٠/، حديث /٨٥٣/. ج١/٣٠٤.
مسلم: كتاب الإمارة، باب /٥/، حديث /١٨٢٩/. ج٣/١٤٥٩.

(٤) متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب /٢/، حديث /٩/. ج١/١٢.
مسلم: كتاب الإيمان، باب /١٢/، حديث /٣٥/. ج١/٦٣.

في الفقه الإسلامي، فهذا العلم له أصحابه، ولكن لعلّي بما أوتيت من تحصيل علمي يجعلني أقيم الأمور بطريقة عقلانية، وبما وهبت من مشاعر الفنان الصادقة، أملك معهما رصيداً كافياً يمتلىء به العقل والقلب... يؤهلني كي أقول كلمة:

ليست مهمتي كناقدة من مجموع النقاد أن أحضَّ على اقتناء اللوحة، بل تنحصر مهمتي في أن أقيِّمها، وأن أشرح حيثيات تقييمها، ويتفق هذا مع رأي الشريعة الإسلامية، التي لم تحمل يوماً عصا القهر والإلزام، بل حملت سراج الهداية، وأتت بالفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، الخطأ والصواب، العلم والجهل، الهدى والضلال، الإفراط والتفريط، التطرف والاعتدال. قال الله سبحانه ﴿ **لا إكراهَ في الدين** ﴾ البقرة/ ٢٥٦.

﴿ **وقُل للذينَ أوتُوا الكتابَ والأُمِّيينَ أأسلمتمْ ؟ فإن أسلمُوا فقد اهتدَواْ وإن تولواْ فإنَّما عليك البلاغ واللهُ بصيرٌ بالعباد** ﴾ آل عمران/ ٢٠.

ولكن إن كان أسلوب الشريعة الإسلامية بمنأىً عن العنف، فهو لايخلو من القوة والحزم، الذي يأبى التراخي والتواطؤ، ولامكان فيه للمراوغة والنفاق، أوالكذب والبهتان، وإن كان لكل فريق رأيٌ، فإنَّ لكل رأي تبعةً، ولكل تبعة مصيرٌ.

وهكذا نسقت الفرق في مراتب ودرجات. قال تعالى: ﴿ **ثم أورثنَا الكتابَ الذين اصطفينَا مِنْ عبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصِدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضلُ الكبير** ﴾ فاطر/ ٣٢.

هذه الكلمات توحي بكرامة هذه الأمة على الله، وتوحي بضخامة التَّبِعَة

الناشئة عن هذا الاصطفاء، وعن تلك الوراثة، وهي تَبِعةٌ ضخمة لها ثمنٌ وتكاليف.

والتكاليف ضخمة لمن **يبادر بالخيرات**، ويسعى لأن يكون من هذا الفريق، حتى ينال الفضلَ الكبير من الله سبحانه والجزاءَ الأوفى.

وتقلُّ التكاليف **للمقتصد**، وبالتالي ينقصُ الفضل لأصحاب الفريق الثاني ويقلُّ الجزاء.

أما الفريق الثالث فهو الشحيح، الذي يضنُّ على نفسه بالخير، إنه **الظالم لنفسه** الذي ينتابه الجزَع عند مقام الإنفاق.

قد يكون ظلم النفس عاتياً، ولكن ظلم الآخرين أعتى وأشد. وكما قال رسول الله ﷺ: **(من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها، وأجْرُ منْ عملَ بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سُنةً سيئةً، كان عليه وزرُها، ووزرُ مَن عمل بها مِنْ بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)** [٥].

(٥) أخرجه مسلم.

الخاتمة

أيُّها النُّقَّادُ الواقفونَ أمام لوحةٍ اسمُها «لباسُ التقوى».

يا أنصافَ المثقفين، المجادلينَ بغيرِ علمٍ ولاهدىً ولاكتابٍ منير.

أيُّها المجاهرون بالعداء السَّافر للإسلام وأحكامِه، الداعون إلى العري الجسدي، باسْمِ الموضةِ والحضارة والزينة.

أيها الحاملون معولَ السَّحق، للإجهاز على جذور هذا الدين الحنيف، في صورةِ عواطفَ غامضةٍ في أعماق النفوس.

أيها المغمضون عيناً عن الحقيقة، الفاتحون أخرى وفقَ الهوى والرغبات.

أيها الباحثون المثقفون، القابعون في زوايا النقد القصيَّة، المتجاهلون وِقفةَ الإسلام في الاعتدال والوسطيَّة.

أيها العلماء والفقهاء، الحاملون مشاعلَ الحقِّ المطفأة، لم يبقَ من مشاعلكم سوى دخانٌ حجبَ الحقيقة.

أيها السَّاعون لتحديث هذا الدين التامِّ الكامل وعَصّرَنته، العاملون على دفعِه إلى غِمارِ موكبٍ حضاري مضطرب متزعزع.

أقول لكم كلمة:

إن لم تكونوا مِنْ أهلِ التَّقوى

فدَعُوا لأهل التقوى لباسَهم.

فإنَّ للتقوى لباساً

إنَّ للتقوى لباساً.

ناديا مُظفَّرسلطان

حلب ٢٢/٤/١٩٩٨

المؤلفة

ناديا سلطان

* خريجة جامعة حلب ـ كلية الهندسة المعمارية.
* أقامت العديد من المعارض الفنية التشكيلية في حلب، وفي كندا: مونتريال وتورنتو.
* في كتابها الصادر عام /١٩٩٧/ تحت عنوان: «**التصوير بالكلمات: مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن**» فتحت لنا الكاتبةُ نافذةً فسيحةً أطلَّتْ بنا على عالم الجمال في القرآن الكريم، وكانت دليلَنا في معرض الكون، وذلك في تلمُّسها روعةَ التصوير في الآيات البيِّنات من كتاب اللهِ العزيز، متتبِّعةً عناصرَ الصورة الفنيَّة فيها، منْ شكل وظلّ ولون ومعنى، وكذلك من حركة وإضاءة وموسيقا، إذ أشارت في كتابها إلى لوحات فنيَّة، بعضها ينطوي على أسلوب ساخر «كاريكاتيري»، وآخر يُعنى بتصوير الوجوه «البورتريه»، إضافة إلى الأسلوب الواقعي، وما فوق الواقعي «السيريالي».
* ولعل النَّافذةَ التي أطلّت منها المهندسة ناديا سلطان على هذا المعرض البهيِّ في دنيا الحضارة الإسلامية، هي ذاتها التي فتحتها على مصراعيها ليتدفَّقَ منها ضوءٌ ساطع يغمر لوحةً اسمها «الحجاب».

في كتابها هذا، تدعو المهندسة ناديا جموعَ النُّقاد، من معارضين أومؤيِّدين إلى الوقوف من جديد أمام هذه اللوحة، لإعادةِ قراءتها من جديد، على ضوء التجربةِ الذاتية التي تحكيها لنا الكاتبة

ثمّ تعلن:

مهلاً، فهنالك شروط ينبغي مراعاتها واحترامها والأخذُ بها، لكل ناقد يحلو له أن يقف أمام هذه اللوحة، ويدلي برأيه فيها.

بل إنَّها عامةٌ إزاءَ أية لوحة تُعْرض في ساحة النقد الفني: من استراتيجية صحيحة، وسلامة نظر، وثقافة كافية، ونيَّة حسنة، وإضاءة جيّدة.

لوحةٌ لها قيمتها وتكاليفها لمن أراد الاقتناء، ولها قدسيتها واحترامها لمن اكتفى بالتَّأمل.

مصادر الحديث الشريف

١) أحمد، ابن حنبل، ت: ٢٤١هـ، المسنَد، القاهرة، المطبعة الميمنية، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى: /١٣١٣هـ - ١٨٩٥م/.

٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، ت: ٢٥٦ هـ، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، دمشق، مطبعة الهندي، دون تاريخ.

٣) الترمذي، محمد بن سَورة، ت: ٢٧٩ هـ، الجامع الصحيح «المعروف بسنن الترمذي»، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٤) الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري، ت: ٤٠٥ هـ، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار المعرفة، دون تاريخ.

٥) الدارمي، عبد الله بن بهرام، ت: ٢٥٥ هـ، السنن، بيروت دار الفكر، دون تاريخ.

٦) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: ٢٧٥ هـ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٧) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت: ٢٧٥ هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، /١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م/.

٨) مالك، ابن أنس، ت: ١٧٩ هـ، الموطأ، المغرب، دار الآفاق الجديدة، دون تاريخ.

٩) مسلم، ابن الحجاج القشيري، ت: ٢٦١ هـ، الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، دون تاريخ.

١٠) النَّسائي، أحمد بن علي بن شعيب، ت: ٣٠٣ هـ، السنن، بيروت، دار القلم، دون تاريخ.

الفهرس

تقديم الدكتور محمود عكام ٩
مقدمة ١٣
تمهيد ١٩

الفصل الأول: شروط النقد الفني.
ما أمرَ بأمرٍ قالَ العقلُ ليتَه نهَى عنه ! ٢٣
زاويةُ رؤيةٍ صحيحةٍ ٢٥
هل يخفض الحجاب، حقاً، من قيمة أحد
مفاتيح الحضارة الإسلامية الأساسية ؟ ٢٥
... وهل من حرب نفسيةٍ تعرَّضت لها المتحجِّبةَ ؟! ٢٨
ليس بخلْع المرأة عباءَتها يرتفع مستواها ! ٣٠
المسلمةُ تستلفتُ بحجابها الأنظارَ. ٣٢
جهود تُبذل في غير تكافؤ. ٣٤
سلامةُ النظر ٣٦

بين الأظفار الملوَّنة واللباس الخشن. ٣٦
المساواةُ والاستقلاليةُ في الإسلام. ٣٨
الحجاب تتويجٌ لخطوات تحقيق المساواة بين الجنسين ! ٤٣
وحدةٌ متكاملةٌ. ٤٣
التَّمتُّعُ بثقافةٍ كافية ٤٦
مناقشةُ الآراء الثلاثة. ٤٨
سلامةُ النيَّة ٥٠
إنهم يستهدفون الحجاب الإسلامي بعداءٍ مفضوح. ٥٢
بينما تحظى الأزياء الأخرى بالرعاية والتأييد. ٥٢
الإنارةُ الكافيةُ ٥٦
هل في الحجاب تمييز بين الحرائر والإماء ؟ ٥٦
لقد أحالوا اللوحة إلى مستودع الأشياء القديمة ! ٥٨
بين مَظهر الإنسان وجوهره علاقةٌ حميمةٌ. ٥٩

الفصل الثاني: لباس التقوى

لباس التقوى ضرورةٌ ٦٤
قد يتغيَّرُ الشَّكلُ، ولكن الحشمة تبقى أساساً في اللباس. ٦٤
قد أنزلنا عليكم لباساً. ٦٦
ثلاث بشارات. ٦٧
في ظلالِ الكمال والتمام والرضى،
بحثاً عن لباس التقوى. ٧٢

ليس الحجاب لفئة، أولزمان، أولمكان، على وجه التعيين. ٧٢
وفي لباس التقوى تمكينٌ للمرأة مِنْ أداء الصلاة
في كلِّ وقت. وكلِّ مكان. ٧٤
مكانةُ السُّنَّة في التشريع. ٧٦
عناصرُ الترابط بين القرآنِ الكريم والسُّنَّة النبوية. ٧٨

الحكم على اللوحة. «رأي الناقد». ٨٣
العنصر القيميُّ الأول.. ٨٣
العنصر القيميُّ الثاني. ٨٤
العنصر القيميُّ الثالث. ٨٥
العنصرُ القيميُّ الرابع. ٨٧
العنصرُ القيميُّ الخامس. ٨٩
الحجاب مسؤولية، وليس بالشكل وحده
يكون الانتماء إلى الإسلام. ٩٠
تعديل تسمية الحجاب. ٩٣
إبدالُ تعبير «لباس التقوى» بـ «الحجاب».. ٩٣

الفصل الثالث: نسخ مشوهة

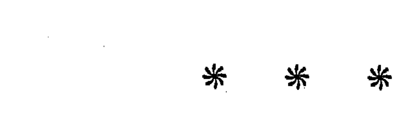
لوحة الحريم. ١٠٢
الحريمُ لا يسمحُ بتنمية شخصيَّة المرأة.
التي كانت تشارك رسول الله في الجهاد.. ١٠٢

وتُسهم في الحركة العلميَّة. ١٠٣
وتعينُ على عمل المعروف. ١٠٣
وتنهَى عن المنكر، كائناً مَنْ كانَ فاعلُه. ١٠٣
الغاية من تعليم المرأة ١٠٥
امرأةٌ تجني نخلها في العدَّة........................ ١٠٦
نقابٌ معنويٌ كثيفٌ. ١٠٦
اللوحة المسروقة. ١٠٩
الرجلُ الذي ينسى حقَّ المرأة ويطالبُ بحقوقه
سارقٌ للوحة لباس التقوى. ١٠٩
اللوحةُ الخالية ١١١
عندما يسرق الرجلُ حقَّ القوامة. ١١٢
اللوحة الناقصة. ١١٤
لغو القول ١١٥
لغو العمل ١١٧
لغو المشاعر ١١٨
ولنَعُد إلى المرأة. ١٢٠
اللوحة القبيحة. ١٢١
تعريف لباس المرأة
وصفُه: ١٢١
غايتُه: ١٢٢
نُسخٌ أخرَى ١٢٣

إنه ليس لباس التقوى، رغم استيفائه للشروط ظاهراً. ١٢٣
فما هو الحلُّ ؟ ١٢٤
صورةٌ للاقتداء.. ١٢٧

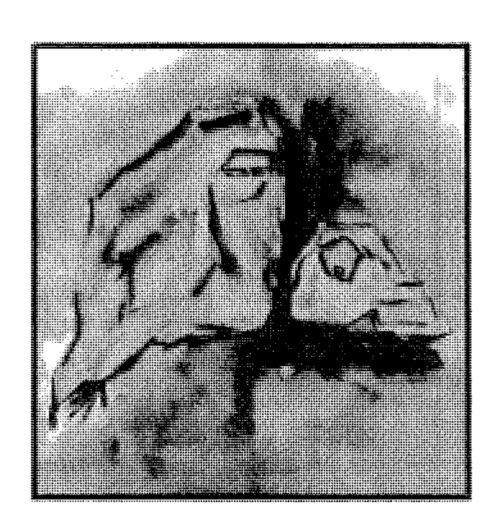
الفصل الرابع: أنا والحجاب

دينُ الفطرة. ١٣١
رحلةُ القُرب. ١٣١
عرفتُ اللّه في قلبي. ١٣٣
وحلمتُ ذات ليلة. ١٣٤
ثمَّ قررت أن أدفع ثمنَ اللوحة. مهما كان.......................... ١٣٥
لقد أصبحت غنيَّة. إنَّني أستطيع الإنفاق. ١٣٧
ناديا، لمَ تضعين هذا الغطاء على رأسك ؟ ١٣٧
هل ترتدينه أثناء النوم أيضاً ؟ ١٣٨
الحقيبةُ الضائعة. ١٣٩
من باب الحبِّ. ١٤٣
واتخذتُ لي مقعداً وسطاً أمام اللوحة. ١٤٦
خاتمة. ١٤٩



تم الكتاب بعون الله و حمده





موضوع لوحتنا هذه الحجاب، ولكم وددتُ، ومنذ زمن أن تكتب في ذي القضية امرأة، فهي الأقدر على الحديث عنها، وتقديمها للنساء خاصّة حُكماً شرعياً في مصلحة المرأة، وليس على حسابها، أو حساب شيء من كرامتها ومكانتها.

كاتبتنا فنّانة، فنّانة تشكيلية، ومن الفنّ انطلقت فكتبت، ومن أحاسيسها ومشاعرها ومعاناتها نهلت فسطّرت.

نادت ناديا: إنَّ لتقويم أية لوحة قواعد، فعلام إغفالها! ولي قصّة مع الحجاب فاسمعوها ولا تهملوها.. فأنا من جملة المعنيات بها، والشاهدات عليها، ولرأيي اعتبارٌ ما دمتُ مخاطبة فيها وبها.

من مقدمة الدكتور
محمود عكّام

